عظماء منسيون في التاريخ الحديث

"الجزء الثالث"

تأليف

محمد بن موسى الشريف


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا -ولله الحمد والمنة- هو الجزء الثالث من هذا الكتاب "عظماء منسيون" وهم الذين نساهم الناس -على جليل أعمالهم وعظيم أفعالهم- وطواهم النسيان فلم يعد أكثر الناس يسمع باسمهم أو يطلع على سيرتهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

هذا وقد ذكرت في الجزء الأول من هذه السلسلة منهجي في اختيار هؤلاء العظماء وكتابة سيرهم فلا أعود لهذا الآن، وإنما أنبِّه إلى شيء مهم ألا وهو أن أصل هذه التراجم قد نشر في مجلة المجتمع ثم روجع وأضيف إلى بعضه شيء كثير أو قليل، وعُدّل بعضه بعض التعديل اليسير، وبقي شيء منها كما نُشر في تلك المجلة الغرّاء، وهو قليل.

هذا وأرجو أن يكتب الله على يديّ شرف إحياء ما نُسي من هذه التراجم، وما طوي من المفاخر والمكارم، وأرجو من الله تعالى أن يثيب هؤلاء بقدر ما نساهم أهل الأرض، وأن يرحمنا وإياهم يوم العَرْض، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

محمد بن موسى الشريف

mhmalshareef@gmail.com

www.altareekh.com

السلسلة الثالثة

١. "الداعية الرُحَلَة": تقي الدين الهلالي.

٢. "الشيخ القوي": محمد الحامد.

٣. "رائد التجديد الشامي": طاهر الجزائري.

٤. "العالم المجاهد": عمر مَكْرم.

٥. "العالم المثابر": عبدالرحمن الافريقي.

٦. "شيخ الأزهر التونسي": محمد الخضر حسين.

٧. "العالم السياسي": الحاج محمد أمين الحسيني.

٨. "إمام أهل السنة": محمود عبدالوهاب فايد.

١- الداعية الرُحَلَة
تقيّ الدين الهلاليّ
١٣١١ – ١٤٠٧

١٨٩٢ – ١٩٨٧

إن كثيراً من دعاة الإسلام يستثقل السفر والارتحال من أجل الدعوة إلى الله وبث الخير، ويبادرك إذا دعوته لشيء من هذا بقولـــه: أنا لا أحب السفر!!

والمترجَم له في هذه الحلقة ضرب المثل بكثرة الأسفار دعـــوةً إلى الله -تعالى- وتعلماً وتعليماً في مشارق الأرض ومغاربها.

ولد -رحمه الله تعالى- في قرية الغيضة مـــن بـــوادي يفلـــي بسجلْماسة "تافيلالت" بالمغرب سنة ١٨٩٢/١٣١١، وكـــان أبـــوه وجَدَه من الفقهاء، وهو من أسرة ينتهي نسبها إلى الحسين بن علي -رضي الله عنهما- وسماه والده محمداً التقي لرؤيا رآها لكنه اشـــتهر بلقب تقي الدين لأن أهل الهند لقبوه بذلك فصار علماً عليه.

قرأ القرآن على أبيه وجده، وحفظه وهو ابن اثـــنتي عشـــرة سنة، ثم سافر إلى الجزائر سنة ١٩١٥/١٣٣٣ لطلب الرزق لكنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في رؤيا مقتضاها أنه صلى الله عليه وســـلم وجهه لطلب العلم فدرس على الشيخ محمد سيدي بـــن حبيـــب الله الشنقيطي مختصر سيدي خليل وعلوم اللغة حوالي خمس ســـنوات إلى وفاة الشيخ سنة ١٩٢٠/١٣٣٨ في إحدى عمالات وهـــران مـــن الجزائر، وكان الشيخ إذا سافر ينيب الهلالي في إلقاء دروسه ويقـــول للطلبة: كل ما عندي من العلم فهو عند هذا الفتى.

ثم عاد إلى المغرب ووصل إلى فـــاس ســـنة ١٩٢٢/١٣٤٠ وحضر دروس بعض العلماء في جامعة القرويـــين وحصل منها على شهادة عادلها بعد ذلك بالشهادة الثانوية في جامعة بون بألمانيا الـــتي درس بها.

ثم في آخر سنة ١٩٢٢/١٣٤٠ سافر إلى مصر واجتمع بمشايخ منهم الأستاذ رشيد رضا وعبدالظاهر أبو السمح، الذي عُين إماماً في المسجد الحرام بعد ذلك التاريخ بسنين، وحضر دروس القسم العالي بالأزهر، واجتمع بالأستاذ رشيد رضا رحمهما الله تعالى.

وحدثت له بمصر حوادث كثيرة بسبب تمسكه بالكتاب والسنة وقوة حجته وشدته على خصومه، وبسبب تركه للطريقة التيجانية التي كان عليها، وقد ذكر هذا في كتابه "الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية".

وحضر دروس القسم العالي من الأزهر فنصحه الشيخ الزَنْكَلوني بألا يطلب علم الحديث في مصر لقلة العناية به آنذاك، ورأى الهلالي كتاب "عون المعبود شرح سنن أبي داود" وعلم أنه طبع في الهند فعزم على السفر إلى هنالك، وشد الرحال بعد عدة أشهر قضاها في الصعيد للدعوة والوعظ ثم حج وسافر، فأقام هنالك خمسة عشر شهراً واجتمع بأهل الحديث وقرأ شيئاً من الحديث النبوي الشريف ولقي الشيخ عبدالرحمن المباركفوري صاحب "تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي" ووصفه بأنه صالح عالم زاهد بكّاء، من أولياء الله الصالحين، وقد أجازه الشيخ المباركفوري والشيخ محمد بن حسين الأنصاري اليماني نزيل بهوبال.

ودرّس ديوان المتنبي لمدة ستة أشهر في مدرسة علي خان في دهلي.

ثم توجه إلى البصرة سنة ١٣٤٣/١٩٢٤ ولقي العالم الشـيخ محمد الأمين الشنقيطي -الذي ترجمت له من قبل- وتزوج ابنته، وأقام بالبصرة ثلاث سنوات.

ثم سافر إلى المملكة ومعه توصية من الشيخ رشيد رضـا إلى الملك عبدالعزيز قال له فيها:

"إن محمداً تقي الدين الهلالي المغربي أفضل من جـاءكم مـن علماء الآفاق، فأرجو أن تستفيدوا منه".

فأقام في ضيافته بضعة أشهر، ثم عين مراقبـاً للمدرسـين في المسجد النبوي الشريف لمدة سنتين، وأراد الملك عبدالعزيز أن يجعلـه إماماً في المسجد النبوي فرضي بشرط أن يسبح في الركوع والسجود عشر تسبيحات فطلب منه الملك أن يقولها ثلاثاً فقط خشية الفتنـة، فرفض و لم يقبل الإمامة!! والذي فاوضه في ذلك هو الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ رحمهما الله تعالى.

ثم انتقل إلى مكة فأقام فيها سنة يُدرّس في المعهد السـعودي والمسجد الحرام.

ثم سافر إلى الهند -على إثر وشاية من أعدائه عنـد الملـك- وصار رئيس أساتذة الأدب العربي في "ندوة العلماء" في لَكْنُو وبقـي فيها أربع سنوات تقريباً تعلم فيها الإنجليزية، وكان يدرب الطلبة على الخطابة، وأنشأ بمساعدة تلميذه الشيخ مسعود الندوي مجلة "الضـياء" التي تعلم الطلبة الكتابة والإنشاء.

ثم رجع إلى البصرة فأقام فيها ثلاث سنوات تقريباً معلماً في مدرسة النجاة.

وفي العراق أراد التجنس بالجنسية العراقية فذهب إلى مدير وزارة الداخلية، وذلك سنة ١٣٥٣/١٩٣٤، فسأله المدير بفظاظة:

ما هي جنسيتك؟

فقال: مغربي.

فغضب المدير وقال: "جنسية هتشي ماكو" أي ليست هناك جنسية بهذا الاسم، قل: فرنسي!!

فقال له: بل هي موجودة فانظر ما هو مكتوب على الجواز باللغة الفرنسية: الدولة الشريفية، فلم يقتنع بذلك.

فقال له: هل كنت أنت انكليزياً قبل سنتين، أي قبل المعاهدة؟

فقال: نحن كنا عثمانيين، ومن بعد صرنا عراقيين.

فقال له: ونحن دولة مغربية منذ ما يزيد على ألف سنة، منذ أسس الإمام إدريس بن عبدالله الدولة المغربية، واستقلت عن الدولة العثمانية.

لكن هذا الجدال لم يُفد شيئاً، ورفض المدير معاملة التجنس، ثم حصل على الجنسية بعد سقوط الوزارة بعد تلك المحاورة بأيام.

ثم سافر إلى جنيف بطلب من الأمير شكيب أرسلان، وقد سقت ترجمته من قبل، ومن هنالك سافر إلى بون سنة ١٣٥٥/١٩٣٦

بتوصية من الأمير ليدرّس الأدب العربي محاضراً في جامعتـــها وقـــال الأمير في توصيته به إلى أحد أصدقائه في الخارجية الألمانية:

"عندي شاب مغربي أديب ما دخل ألمانيا مثله، وهو يريد أن يدرس في إحدى الجامعات، فعسى أن تجدوا له مكاناً لتدريس الأدب العربي براتب يستعين به على الدراسة"، وشرع في تعلم اللغة الألمانية، ثم صار طالباً في الجامعة ليجمع بين الدراسة والتدريس!!

وبقي في بون ثلاث سنوات ترجم فيها كتابين عربيين قديمين إلى الألمانية، وهما "البلدان" لمحمد بن الفقيه البغدادي المتـــوفى أواخـــر القرن الثالث، وكتاب "طيف الخيال" لمحمد بـــن دانيـــال الكَحّـــال الموصلي نـــزيل مصر.

ثم طلبت وزارة الدعاية الألمانية من وزارة التعلـــيم ورئاســـة الجامعة إعارة خدماته إلى جامعة برلين ليشرف على الإذاعة العربيـــة التي أسست في بداية الحرب العالمية الثانية، فصار مرجعاً لغوياً للإذاعة إضافة إلى قيامه بمهام التدريس في جامعة برلين، ولم ينس أن يكـــون طالباً فيها أيضاً!!

واستطاع من خلال الإذاعة أن يفضح جرائم الفرنســـيين في المغرب وجرائم الإنجليز، وألقى منها خطباً ناريّة قوية، فنفته فرنسا من المغرب نفياً تأديبياً عن بُعد، ونـــزعت بريطانيا جنسيته العراقية، فأين حرية التعبير؟!!

ثم قَدّم في صيف سنة ١٣٥٩/١٩٤٠ رسالة الدكتوراه لجامعة برلين وهي ترجمة لكتاب "الجماهر في الجواهر" مع تعليقات عليها فَنَّد

فيها آراء بروكلمان وغيره من المستشرقين الألمان، ورد عليهم رداً قوياً دافع فيه عن البيروني الذي ادعوا أنه كان زنديقاً شعوبياً، وذلك الدفاع استقاه من كتب البيروني نفسها، وناقشه في الرسالة عشرة من العلماء الألمان ووافقوه جميعاً على ما ذهب إليه، ونشر الرسالةَ ناشر ألماني لنفاستها.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية بعثه الحاج أمين الحسيني إلى شمال المغرب في مهمة سياسية وكان جواز سفره عراقياً إذ كان قد تجنس بالجنسية العراقية أثناء إقامته هنالك فرفضت السفارة العراقية تجديده لدسيسة انجليزية، فبعث إليه السفير المغربي جوازاً مغربياً على أنه من تطوان فساومه الإسبان على الدخول إلى تطوان -التي كانت ترزح تحت نير الاحتلال الإسباني آنذاك- بأن يكتب مقالاً يوضح فيه أنه لا حق لأَلمانيا في المغرب وكان الإسبان يتخوفون من ألمانيا آنذاك، وكان لألمانيا مطامع في المغرب، فكتب المقال وذكر فيه أن المغرب لأهله وأنه لا حق لأحد من المحتلين فيه، ففرح بالمقال الاسبان ونشروه، وطلبوا منه ألا يكتب أي شيء بعد ذلك إلا بإذنهم وبقي عندهم ٥ سنوات، خبيراً في معهد الباحثين، ودعا إلى ترك البدع واتباع الكتاب والسنة.

وفي أثناء إقامته ورد عليه خطاب من الأستاذ البنا رحمه الله تعالى يطلب منه مراسلاً لجريدة "الإخوان المسلمون" وإن استطاع الهلالي أن يكون هو المراسل فليفعل، وفي ذلك قال الهلالي تحت عنوان "التعاون مع الإمام الشهيد حسن البنا رحمة الله عليه":

"وبينما المستعمرون الإسبانيون مغتاظون علي لأني نقضت العهد الذي بيني وبينهم لأمرين: أحدهما: الاتصال بالوطنيين والتعاون معهم، والثاني: إلقاء الدروس بدون إذنهم، وهناك ثالث وهو نشر المقالات في صحيفة "الحرية" لسان حزب الإصلاح الوطني إذا بهم يكتشفون أمراً عظيماً له بال هو أشد خطراً من كل ما تقدم؛ وذلك أن الإمام حسن البنا -رحمه الله ورضي عنه- كتب إلي يقول: إن صحيفتنا "الإخوان المسلمون" بلغت من الرواج والانتشار ولله الحمد إلى أن صارت في مقدمة الصحف اليومية التي تصدر في القاهرة، ولنا مكاتبون في جميع أنحاء العالم إلا في المغرب فليس لنا مُكاتب يبعث لنا بأخبار إخواننا المسلمين في هذا القطر المهم، فأرجو من فضلك أن ترشدنا إلى مُكاتب تختاره لنا وتخبرنا بما يطلب من المكافأة، وإن سمحت لك صحتك بأن تكون أنت بنفسك ذلك المكاتب فهو أحب إلينا، فأجبته:

لبيك يا لبيك يالبيكا   ها أنذا منطلقٌ إليكا

أنا الذي أتشرف بأن أكون مكاتباً لصحيفة الإخوان المسلمين، ولا أريد على ذلك أجراً إلا من الله تعالى".

فأرسل الهلالي عدة مقالات فاكتشف أمره لتواطئ ساعي البريد المغربي مع الإسبان فسُجن ثلاثة أيام في شفشاون مكان إقامته ثم أُفرج عنه بعد تذمر أهل المدينة وشكواهم إلى السفير الإسباني في طنجة وبعد إطلاقه نزع الإسبان منه جوازه بدعوى أنه مزور!! واجتمع بالبنا بعد ذلك سنة ١٣٦٦/١٩٤٧ في مركز الإخوان العام في القاهرة.

ثم سافر إلى العراق سنة ١٣٦٦/١٩٤٧ وعين مدرساً للكتاب والسنة وللأدب العربي في كلية الملكة عالية في جامعة بغـــداد، لكـــن صالح جبر رئيس الوزراء -وكان من الشيعة- منعه من العمل بحجـــة أنه عاد إلى العراق بجواز أجنبي وأنه تنازل عن الجنسية العراقية، وهذا لم يحدث إنما اضطر إليه الهلالي لأن السفارة العراقية في روما لم تجـــدد جوازه كما ذكرت من قبل، وفحص الهلالي عن السبب الحقيقي لهذا العداء فإذا هو بسبب تشيع صالح جبر، واطلع الهلاليّ على ملفـــه في دائرة التحقيقات الجنائية بمساعدة بعض أصدقائه فوجد فيه أنه معـــادٍ للشيعة، فمكث سبعة أشهر على ذلك حتى وقعـــت اضـــطرابات في العراق فرّ على إثرها صالح جبر ونوري السعيد وتولى محمد الصـــدر رئاسة الوزارة وأمر بإعادة الاعتبار للهلالي وإعادة تجنيسه، واستطاع بذلك أن يزاول عمله في الجامعة.

ثم بعد أربع سنوات رُقي إلى درجة أستاذ مساعد ثم أستاذ.

ولما حدثت ثورة الشيوعيين في العراق ســـنة ١٣٧٧/١٩٥٨ اضطربت الأوضاع جداً، وقُتل كثير من المسلمين ظلمـــاً وعـــدواناً، فخاف الهلالي على نفسه فخرج من العراق إلى المغرب وعين أســـتاذاً في كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط ثم في فرعها في فاس.

وبقي فيها إلى سنة ١٣٨٨/١٩٦٨.

ثم حج في تلك السنة فدعاه الشيخ عبدالعزيز بن باز ليكـــون أستاذاً في الجامعة الإسلامية في المدينة النبوية المنورة وبقي فيها إلى سنة ١٣٩٤/١٩٧٤.

ثم عاد إلى المغرب وأقام في مدينة مكناس للـــدعوة والـــوعظ وإلقاء الدروس في المساجد، وتجول في أنحاء المغرب للدعوة.

ــ همته:

ــ والناظر إلى هذه السيرة العجيبة يعلم أن صاحبها كـــان ذا همة عالية جداً، فقد هان عليه السفر في زمن كان السفر فيه صـــعباً شاقاً، وهان عليه تحمل المشاق الكـــثيرة في ســـبيل الـــدعوة إلى الله والوعظ والإرشاد، حتى أنه كان يسافر ماشياً في بعض الأحيان.

وتعرض للأخطار الكثيرة فلم يأبه بها حتى أنه هُدد بالقتل فلم يرجع عما يعتقده ويؤمن به، رحمه الله تعالى.

ــ ومن الدلائل على علو همته ما قاله أحد تلاميذه وهو أحمد هارون التطواني:

"لم يكن شيخنا ليضيع وقته مهما كان، يقرأ ويكتب الأشعار وهو في السيارة، يقضي يومه من الصباح إلى المساء في علم وتعلـــيم وذكر وتأليف".

وقال أيضاً:

"يتميز أستاذنا باتصاله بالشعب، فأي شخص صغير أو كبير يستطيع أن يوقفه في الشارع ويتحدث معه، كما كان بيته مفتوحـــاً دائماً فتجد الأفواج تأتي إلى منـــزله وهو لا يمـــل مـــن الترحـــاب والإكرام، وكان يقوم بنفسه قبيل صلاة الصبح يسخن لنا الماء لنتوضأ به".

ـــ مؤلفاته:

للهلالي كتب كثيرة تناهز الأربعين، وترجم صحيح البخاري إلى الانجليزية، وكان يكتب في مجلة "الفتح" لمحب الدين الخطيب، ومجلة "المنار" لرشيد رضا، ومجلة "الهدي النبوي" لجماعة أنصار السنة.

له ديوان شعر منه قصيدة قالها في انتقاد أخلاق الموظفين في العراق أيام الحكم الملكي، ومنها:

نحن في بلدة غدا الحكم فيها ... -يا رحيماً رحماك- للبواب

إن يكن راضياً دخلتَ وإلا ... تبقى في الواقفين دون الباب

بلدة أصبح الموظف فيها ... جالساً في السماء فوق السحاب

مَن يُرِدْ أن يلقى الموظف يُصبرْ ... قبل أن يلقاه صنوف العذاب

ومنها يتحدث عن لقاء المدير:

وإذا ما سألت عنه فلا تسمع ... منهم سوى اختلاق الجواب

هو عند الوزير بل في اجتماع ... عنده زائر من الأصحاب

لم يَجِئْ بعدُ فانتظر أو تأخر ... لغد أو فاغرب لغير إياب

وإذا فزت باللقاء فحاذر ... رفع صوتٍ أمامه في الخطاب

وتجنب ذكر الحقوق وبالغ ... في خضوع وذلة وانتحاب

ثم قـــال في تملـــق وانكســـار   وثنـــاء منمـــق مســـتطاب

ليت كل المـوظفين كمثـل البيـك   في رقـــة ولـــين جنـــاب

إلى آخر ما قاله رحمه الله تعالى.

ــ توفي رحمه الله تعالى سنة ١٤٠٧/١٩٨٧ بمنــزله في الدار البيضاء فيكون بذلك قد عاش قرابة ٩٧ سنة، وكانت خاتمته حسنة -إن شاء الله- فقد توضأ وصلى ركعتين وقرئ عليه سورة ياسين ثم طلب من القارئ الإعادة من قوله تعالى: "أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة" فلما وصل إلى قوله تعالى "وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم" رفع الشيخ إصبعه إلى السماء وفاضت روحه رحمه الله تعالى.

قال عنه العلامة حماد الأنصاري:

"كان في اللغة العربية إماماً، وكان على مذهب ظاهري، وهو شيخي استفدت منه كثيراً، وكان سلفي العقيدة؛ لو قرأتَ كتابه في التوحيد لعلمتَ أنه لا يعرف التوحيدَ الذي في القرآن مثلُه".

وقال أيضاً:

وقد مضت علي الآن خمس وأربعون سنة لم أر مثله.

والعجيب أن الشيخ عبدالحميد بن بـاديس مدحـه سـنة ١٣٥٦/١٩٣٨، أي قبل موت الهلالي بإحدى وخمسين سنة!! فقال عنه:

"والأستاذ العلامة محمد تقي الدين الهلالي -صاحب الفصول الممتعة، والبحوث الجليلة في صحيفة "الفتح"- من أفاضلنا اللذين أجمع على الاعتراف بفضلهم الشرق والغرب، والعرب والعجم، والمسلمون وغير المسلمين، فهو في الحجاز نار على علم شهرة وفضلاً، وفي الهند تبوأ منصة التدريس في أرقى جامعاتها، وفي العراق معروف بدأبه على خدمة هذه الأمة وحرصه على خيرها، وهو الآن في ألمانيا موضع الحرمة من أركان جامعة بون التي يتولى التدريس فيها؛ فالأستاذ الهلالي رجل علمي واسع النظر واقف على أحوال الشرق والغرب لذلك كان ما يقرره في بحوثه من حقائق يأتي ناضجاً مفيداً ممتعاً...".

فانظروا إلى هذه الشمائل والخلال التي كان يتحلى بها قبل ٥١ سنة من وفاته!!.

ـــ قوته في الحق:

كان الشيخ قوياً في الحق لا يعرف اللين فيه ولا المحاباة، وجرى له بسبب ذلك أحداث عديدة منها أنه لما سافر إلى مصر -كما بينت من قبل- قصد الإسكندرية، وفي الطريق أدركته صلاة الظهر في إحدى القرى فصلى في مسجد فرأى فيه قبراً والناس تتمسح به ويطلبون منه المدد والحوائج، فأنكر عليهم بشدة فضربوه حتى أغمي عليه، وأنقذه الله بمن رش على وجهه الماء وأخذه إلى بيته يمرضه شهراً كاملاً، ونصحه -بعد أن عاتبه على قلة مداراته- بالذهاب إلى الملك عبدالعزيز فسيجد عنده بغيته.

ــــ ومن مواقفه أنه كان إماماً لمسجد بناه الوجيه مصطفى إبراهيم في منطقة الدورة بالبصرة، وفي مرة من المرات حانت صلاة المغرب فتأخر صاحب المسجد عن الحضور في موعد الصلاة فأقام الهلالي الصلاة وصلى ولم ينتظره، وبعد الصلاة عاتبه لأنه لم ينتظره، فقال له: إن وقت المغرب قصير ولا يصح التأخير، فقال: ألا تعلم يا شيخ تقي الدين أنني أملك نصف منطقة الدورة؟!!

فقال: وأنا أملك النصف الآخر!! وأنا إمام المسجد.

ثم غادر المنطقة ولم يَعُد إليها.

وقد استشاره الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ رحمهما الله تعالى في قطع النخلة والشجيرات وطَمِّ البئر التي في المسجد النبوي الشريف لما افتتن بها العامة فأشار عليه بصنع ذلك، فاستأذن الشيخ عبدالله بن حسن الملك عبدالعزيز في هذا الصنيع فأذن له فقطعت النخلة والشجيرات وطُمّ البئر.

ــــ مروءة الشيخ:

كان الشيخ رحمه الله تعالى صاحب مروءة وشهامة، يساعد الناس ويقضي حوائجهم، وإليكم هذه القصة المعبرة التي تدل على ذلك، فقد تحدث الشيخ عن تلميذة درست عنده اسمها نــــزهة فقال:

"صارت "نزهة كويز" من تلميذاتي قبل ثلاث سنين، ولما عرفت ما أوجب الله عليها من ستر العورة والتمسك بالعفاف عزمت على أن تعصي والديها ولا تعود إلى المدرسة، فلما حان ابتداء السنة

الدراسية أخبرت أهلها بذلك، فقالا لها: أجننت؟ كيف تتركين الدراسة بعد ما نجحت في السنة الخامسة من الثانوي وتضيعيننا وتضيعين نفسك؟

فقالت لهم: إني قد علمت من دروس الدكتور محمد تقي الدين ابن عبدالقادر الهلالي الحسيني أن ما ترتكبه المدارس الثانوية من إجبار الفتيات على التجرد من ثياهن بحيث لا تبقي إلا خرقة رقيقة تستر القبل ستراً كالعدم، وأخرى مثلها تستر الدبر ويكون ذلك أمام رجال المدرسة من معلمين وطلاب، ومن يمر بجانب المدرسة من عابري السبيل، حرام شرعاً، وهي بذلك تشير إلى ما تلبسه الطالبات إذا نزلن المسبح.

وجاءتني باكية فذهبت إلى طبيب مشهور في مكناس، والتمست منه أن يكتب لها شهادة بأنها مريضة، وأن الرياضة البدنية التي يتستر بها المجرمون في تعرية الفتيات وهن ما بين السادسة عشرة والثانية والعشرين لا تتفق مع صحتها، فلما قدمت الشهادة إلى مدير المدرسة بعثها إلى طبيب فرنسي ففحصها ووجدها صحيحة لا مانع لها من الرياضة البدنية بل التعرية الشيطانية، فرجعت إليَّ باكية أيضاً وكان عندي سبعة من المعلمين في المدارس الثانوية يتلقون دروساً من كتابي "تقويم اللسانين" فعرضت عليهم المشكلة، فقالوا: إن مدير المدرسة التي تدرس فيها نزهة متدين وقد حج بيت الله، فنحن نتوجه إليه ونسأله إعفاءها من درس الرياضة البدنية الذي يتسترون به على كشف عورات النساء وتعويدهن على الوقاحة وقلة الحياء بل عدمه فيصلن بذلك إلى الفجور.

فذهبوا إليه وإلى الحارس العام الذي يشاركه في التصرف فاعتذر المدير بأنه يخاف المفتش خصوصاً، وقد ثبت أنها تستطيع أن تلعب الرياضة، فقال الحارس العام: إذا وافقني المدير فنحن نعفيها من ذلك، فأُعفيت من تلك السنة، وكانت تحافظ على صلاة العصر في وقتها فيجتمع عليها سفهاء المدرسة من الرجال والنساء، ويقولون: هذه الجدة جاءت!! هذه الحاجة جاءت!! تقبل الله!! استهزاء بها، فلا تبالي بهم، وتؤدي صلاتها بغاية الاطمئنان، لا تألوا جهداً أن تصلي صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واتفق أني في تلك السنة اتصلتُ بصاحب الفضيلة رئيس تعليم البنات الشيخ ناصر بن حمد آل راشد، فبعث إليّ مدير التعليم سعادة الأستاذ الشيخ عبدالله العقيل وقدم عليّ في مدينة الدار البيضاء، وأقام أياماً تكرر اجتماعنا فيها، وأخبرني: بأن سماحة رئيس تعليم البنات الشيخ ناصر بن حمد آل راشد يقبل خمس طالبات كل سنة يكملن تعليمهن في دائرة تعليم البنات بالمملكة العربية السعودية، وكان في ذلك فرج ومخرج لنـــزهة كويز، فكانت أولى الطالبات الخمس، وفرحت بذلك فرحاً عظيماً، وقد استجاب الله دعاءها، فأخرجها من الظلمات إلى النور.

ولما حان وقت سفرها مع سائر الطالبات ذهبت إلى المدرسة التي كانت فيها لتأخذ كتاباً أعارته طالبة أخرى، فرآها المجرم المكلف بتعرية الطالبات يوم الثلاثاء من كل أسبوع بذريعة ممارسة الرياضة البدنية فنظر إليها شَزْراً -أي من طرف عينه احتقاراً- وأوسعها هُجْراً، أي سباً مُقْذِعاً، وقال لها: لماذا غطيت رأسك أمريضة أنت؟

فأجابته: إن الإسلام أمرني بتغطية رأسي.

فقال لها بالفرنسية ما معناه "في نظري واعتقادي لا وجود للإسلام".

ولما أخبرتني بذلك استشطت غضباً، وقلت لها: هلا قلت له: وفي اعتقادي أنا: أنت لست موجوداً، وأنت تعلمين أنه لم يبق له عليك سلطان، ولكن الفتاة المسلمة غلبها الحياء، وقد درست هذه الطالبة السنة الماضية في مدارس تعليم البنات بالرياض ونجحت، وهي الآن تدرس في هذه السنة هناك.

والفتيات المسلمات الطاهرات إذا سافرن للتعلم في مدارس السعودية يتلقين تغطية الوجه مع التستر التام بغاية السرور والفرح، وقد كتبت إلي إحداهن وهي آمنة الهاشمي ممن بُعثن في هذه السنة بعدما وصلت إلى الرياض، ورأت في الطريق كيف يعامل الناس الطالبات المسلمات بغاية الاحترام والتكريم، افتتحت الكتاب بهذه العبارة: "الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور".اهـ.

ـ من عجائبه:

كان الشيخ ذا عجائب كثيرة وقعت له في حياته، ومن أكثرها وأعجبها ما وقع له حال انتسابه إلى الطريقة التيجانية وفي طريقة خروجه منها وبعد الخروج، وقد بين كل ذلك مفصلاً في كتابه: "الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية"، فلينظره من أراد الوقوف عليها فهي كثيرة يضيق المقام بذكرها.

ومن عجائبه أنه كان يعرف خمس لغات معرفة متقنة إضافة إلى إمامته في الفصحى وهي الألمانية والإنجليزية والفرنسية والعبرية والإسبانية، ويعرف البربرية، ويشارك في الأردو والسُرْيانية.

ـــ وكان كثير الزواج، فقد تزوج في المملكة وله ابنتان فيها.

وتزوج في العراق وله أولاد هنالك اتصل أحدهم بالشيخ ابن باز رحمه الله تعالى أيام حرب الخليج الأولى وكان في مخيم رفحا للاجئين، فاهتم الشيخ ابن باز كعادته به وطلب من المسؤولين أن يحضر إلى الرياض هو وأولاده وأكرم وفادتهم حتى عادوا إلى العراق.

وتزوج في المغرب لكنه لم يرزق بأولاد من تلك المرأة.

وتزوج قبلها بأم شكيب وهي مغربية وله منها ابن وبنت.

وتزوج في ألمانيا بامرأة مسلمة وله ولد منها.

ـــ ومما حصل له وهو يدعو إلى العجب أنه كان يتحدث مع البروفيسور شميت مدير مستشفى العيون التابع لجامعة بون بألمانيا، وهو أحد العلماء العشرة الذين يتألف منهم مجلس الجامعة الأعلى، وذلك سنة ١٣٧٤/١٩٥٤ فوجده يعتقد أن الدولة العثمانية وسلاطينها ما زالوا موجودين!! وهذا غريب من عالم كبير ومدير لمستشفى؛ فقد سقطت السلطنة العثمانية والخلافة قبل ذلك الحديث بثلاثين سنة فكيف لم يصل ذلك إلى علمه!!

ملحظ: ذكر الدكتور محمد بن لطفي الصباغ أن الهلالي قدم عليهم في دمشق سنة ١٣٧٣/١٩٥٣ وكان كفيف البصر، ويستعمل

في القراءة طريقة بريل، وهذا عجيب فإني لم أقرأ لأحد أن الهلالي كان كفيفاً.

لكني قابلت تلميذه الأستاذ محمد الموسوي صاحب مكتبة الحكمة في الدار البيضاء فأكّد لي أنه كان كفيفاً، فعلمت أن مَن ترجم له أغفل ذكر هذا الأمر وهو نقص في الترجمة ولاشك؛ لأن هذا العمى مما يزيد في التأكيد على عظمة الشيخ وعلو همته(١).

(١) وجدت له في كتابه "تقويم اللسانين" ص ٦١ نصاً يذكر فيه ضعف بصره وعدم قدرته على القراءة، فيبدو أنه فقد بصره تدريجاً.

٢- الشيخ القوي

محمد الحامد

١٣٢٨ – ١٣٨٩

١٩١٠ – ١٩٦٩

في التاريخ الإسلامي مشايخ كثيرون لا يُعدون ولا يُحصون لكن قليلاً من أولئك الكثير كانوا عاملين، والأقل منهم كانوا متصدين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان من هؤلاء فضيلة الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى.

ولد في حماة -مدينة أبي الفداء- سنة ١٣٢٨/١٩١٠، وهي مدينة النواعير -حاملات المياه الدائرة- قال عنها ابن بطوطة رحمه الله تعالى: "حماة إحدى أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة، ذات الحسن الرائق والجمال الفائق، تحفها البساتين والجنات، عليها النواعير كالأفلاك الدائرات، يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي".

وقال عنها ابن سعيد الأندلسي: "وفي حماة مَسْحَةٌ أندلسية".

وكان للشيخ شقيقان أحدهما أكبر منه وهو شاعر يسمى بدر الدين، والآخر أصغر منه وهو عبدالغني، ووالدهم الشيخ محمود كان شيخ النقشبندية في حماة، وكان قليل ذات اليد، حادّ الطبع، ورعاً، عفيفاً، يُعلم الأطفال في الكُتاب، ثم ما لبث أن توفي وكان عمر الشيخ محمد الحامد ست سنوات آنذاك.

وبعد سنة فقد الشيخ أمه فصار إلى اليُتم وفقد حنان الأم، وعاش الأولاد الثلاثة في محنة لأنه لا مورد لهم، ولأن الحرب العالمية الأولى ضيقت العيش على الناس جداً، وكان الولد الأكبر بدر الدين لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره آنذاك، فباع أقرباؤهم أثاث المنــزل ثم أجّروه، وأودعوا أجرته عند بعض الثقات ليتولى الإنفاق

عليهم، وسكن الإخوة مع بعض الأسر الفقيرة يعانون من الجوع والحرمان.

ودرس الشيخ محمد وأخوه الأصغر في إحدى المدارس الابتدائية، وكانا يعانيان من مرارة الجوع والحرمان، ووصف ذلك الشيخ محمد بقوله: "كنا كثيراً ما نبقى في المدرسة أثناء فرصة الغداء دون طعام، حتى أن أخي كان يبكي أحياناً من شدة الجوع، على حين أشغل نفسي باللعب عن آلام الحرمان".

وكان أخوهما الأكبر قد اضطر لاختصار دراسته فقطع تعليمه الثانوي ليعمل وينفق عليهما بسبب ذلك الضيق فكان لهما بمثابة الأبوين؛ فقد عمل وكيلاً مزرعة، وشارك في دكان صغيرة "بقالة" وغير ذلك ليوفر بعض المال، وأخذ أخويه إلى بيت أخواله فأعطوهم غرفة عندهم، ثم لما استغنى قليلاً انتقل بأخويه إلى غرفة منفردة في دار منعزلة:

فرغ الشيخ محمد من دراسته الابتدائية لكنه لم يُرد أن يكمل الدراسة وآثر عليها حلقات العلم عند المشايخ، واشتغل في محل خياطة في النهار، وفي المساء يقصد حلقات العلم.

فلما افتتحت مدرسة "دار العلوم الشرعية" هجر العمل في الخياطة إليها سنة ١٣٤٢/١٩٢٤، واستمر في حضور الحلقات العلمية وكان في ذلك صاحب همة عالية، إذ بلغت تسع حلقات!! وكان من مشايخه خاله العلامة السلفي الشيخ سعيد الجابي، وشيخ الشافعية بحماة محمد توفيق الصباغ والعالم الورع أحمد المراد أمين الفتوى في

حماة الذي تزوج الشيخ محمد الحامد ابنته قبل أن يكون له أي مورد منتظم، والشيخ محمد سعيد النعسانيّ مفتي حماة.

وفي سنة ١٩٢٨/١٣٤٧ أنهى الشيخ محمد دراسته في المدرسة وسافر إلى حلب ليدرس بمدرسة خسرو باشا الشرعية التي كانت أرقى المدارس الشرعية في بلاد الشام لعظم مدرسيها وجودة منهاجها، وجَدّ في طلب العلم وثابر حتى نبغ، ووصفه أحد مشايخه -وهو الشيخ أحمد الشمّاع- بأنه "بحر علم لا تنـــزحه الدلاء".

ولم يكتف بالمدرسة بل واظب على حضور حلقات العلم خاصة حلقة الشيخ نجيب السراج، وصار يكثر من القراءة والمطالعة لأنه كان يرى أن "المناهج الرسمية تُعنى بتكوين الشخصية العلمية، أما التضلع من العلم فطريقه المطالعة الواسعة".

ثم لما فرغ من الدراسة في حلب يمم وجهه شطر مصر وأزهرها سنة ١٩٣٧/١٣٥٦ لكنه نفر من مظاهر السفور التي انتشرت في مصر آنذاك، والاختلاط الفاحش السائد هنالك آنذاك، حتى أنه كتب لأحد مشايخه يقول له: "ماذا يأمل طالب العلم الحقيقي في مصر وهو يرى المحرمات من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله".

ولم يسترح لتفلت المشايخ في الأزهر من السمت الإسلامي فيصفهم بقوله: "غير عاملين بالسنة، وليس عندهم شيء من الروحانية، وطلبة الأزهر يحلقون لحاهم وشواربهم، وكثير منهم لا يصلون!!! وهم يشاغبون أثناء الدروس، ويقرأون في الجرائد لعدم

رغبتهم في العلم وقلة تشوقهم له، ولئلا تكثر عليهم المقروءات فيصعب الفحص فهم طلاب شهادات لا طلاب علم".

ولما رأى ذلك كله سارع بالعودة إلى حماة فصار كثير من الناس يقرعونه على خروجه من مصر وتفويته تلك الفرصة فاضطر للعودة لكن الله تعالى أنجده بثلة من الشيوخ والدعاة كان على رأسهم الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله، وقد تأثر به الشيخ محمد الحامد وقال عنه:

"إن المسلمين لم يروا مثل حسن البنا منذ مئات السنين في مجموع الصفات التي تحلى بها وخفقت أعلامها على رأسه الشريف، لا أنكر إرشاد المرشدين، وعلم العالمين، ومعرفة العارفين، وبلاغة الخطباء والكاتبين، وقيادة القائدين، وتدبير المدبرين، وحنكة السائسين، لا أنكر هذا كله عليهم من سابقين ولاحقين، لكن هذا التجمع لهذه المتفرقات من الكمالات قَلّما ظفر به أحد كالإمام الشهيد -رحمه الله- ، كان لله بكليته بروحه وجسده، بقلبه وقالبه، بتصرفاته، وتقلبه، وكان الله له واجتباه، وجعله من سادات الشهداء الأبرار".

وقال عنه البنا أيضاً:

"والذي أثر في نفسي تأثيراً من نوع خاص وله يد في تكويني الشخصي سيدي وأخي في الله وأستاذي الإمام الشهيد حسن البنا... صحبته في مصر سنين، وحديثي عنه لو بسطته لكان طويل الذيل ولكانت كلماته قطعاً من قلبي، وأفلاذاً من كبدي، وحُرَقاً من حرارة

روحي، ودموعاً مُنهلة منسابة تشكل سيلاً من فاجع الألم وعظيم اللوعة".

ـــ وكان الشيخ محباً للرحلات، فلما كان في مصر دار في بلادها وقراها حتى وصل إلى أسوان، على صعوبة نسبية في التنقل آنذاك، وزار الفيوم وشبهها بحماة خاصة نواعيرها.

وحصل في الأزهر على شهادة العالية تخصص القضاء سنة ١٣٦٢/١٩٤٢، ثم لم يرد أن يواصل الدراسات العليا وعاد إلى حماة ووُظف مدرساً في وزارة التربية والتعليم.

وهناك جلس للتعليم بدأب وهمة عالية لا ينشغل عنه إلا بضرورات الحياة وحاجاتها، أو بما ينشغل به من كتابة كتب ورد على استفتاءات، وكان قد برز وتميز في المذهب الحنفي حتى صار أحد أعمدته في بلاد الشام.

ـــ جهاده:

كان الشيخ رحمه الله مشاركاً في مجاهدة الفرنسيين الذين احتلوا بلاد الشام ظلماً وعدواناً وعاثوا في أرضها الفساد ونادى بالاستقلال، وكان يُذكي بخطبه الحماسية جذوة الجهاد داعياً إلى الثورة ضد الفرنسيين.

وكان يخطب وطائرات العدو الفرنسي يوم الجمعة تقصف حماة مراراً، وتلقي بقنابلها حتى على المساجد، وكان مما يقوله آنذاك:

"أيها المسلمون: أعدوا أنفسكم للجهاد، وَطِّنوها على الموت، موت شريف خير من حياة تعيسة... ركوب الصعاب والأهوال في

ارتفاع أجمل بكثير من الراحة والدَعة في استخذاء..." ولما استقلت سوريا رفع بنفسه العلم فوق ثكنات الفرنسيين العسكرية بعد أن رفع الأذان فيها بنفسه.

ثم أراد أن يشارك أخاه الدكتور مصطفى السباعي في الجهاد في فلسطين لكن علماء حماة منعوه؛ لأنهم رأوا أن بقاءه معلماً ومهذباً وداعياً أولى من الذهاب للجهاد، فاستجاب لهم، لكنه انضم إلى اللجان التي شكلت لمساعدة الفلسطينيين وجمع المعونات لهم، وكان يطوف على الناس من أجل هذا، ولما وقع العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦/١٣٧٦ انضم الشيخ إلى صفوف المقاومين الشعبيين، وحمل السلاح وكان يخرج إلى أحد الحقول للتدريب، والشيء نفسه صنعه لما وقعت النكبة الكبرى ١٩٦٧/١٣٨٧.

وكان دائماً يوصي الشباب بالدخول في الجيش.

ــ دعوته:

كان الشيخ داعية إلى الحق والخير والهدى والرشاد، مثابراً في ذلك، وقد التف عليه الناس وأحبوه، ومن جملة أعماله في الدعوة ما حكاه عن نفسه بقوله:

"لما وجهت إليّ وزارة المعارف تدريس الديانة والعربية في "تجهيز حماة" كنت كثير التشاؤم من حال الطلاب ووضعهم، ولكن بعد قليل تبدل تشاؤمي تفاؤلاً وانقباضي انبساطاً واستبشاراً؛ حثثتهم على الصلاة فصاروا يصلون، ويحضر بعضهم الدرس العام، وقذف الله تعالى النور في قلوبهم فشعروا بتفريطهم الماضي؛ فطفقوا يسألونني عن

أحكام تتعلق بقضاءِ الفوائت، ومن قريب سألني أحدهم عن حكم يتعلق بقيام الليل مبدياً رغبته في قيامه"، وهذا هو تأثير الداعية القوي فيمن حوله إذا أخلص واجتهد وثابر.

وكان الشيخ خطيباً قوياً مؤثراً يخطب في جامع السلطان في حماة ويوجه الناس إلى الخير والهدى، وكان فصيحاً بليغاً بعيداً عن اللحن.

ويعود له الفضل بعد الله تعالى في تهدئة مدينة حماة عند ثورة الشهيد -بإذن الله- مروان حديد، وقد اعتصم في جامع السلطان فُهدم المسجد فوق أهله وسقطت مئذنته، وجرت أحداث خطيرة، فقام على رأس وفد من أهل المدينة، يُهدئ الخواطر ويقمع الفتنة، ومنع العسكر من دخول المدينة بجرأة وقوة.

وكان له الفضل -بعد الله تعالى- في التصدي لموجات الإلحاد التي طغت آنذاك، إذ إن سوريا لما استقلت تنازعتها التيارات الضالة من كل جهة، وانتشر فيها فساد لم يُعرف من قبل، فوقف الشيخ في وجه تلك التيارات للحفاظ على عقيدة الأمة وأخلاقها.

وكان له حلقة في الجامع يؤوب إليها أهل الهوى والضلال أو أهل العصيان.

وكان له أثر بالغ في قيادة وتوجيه أهل مدينة حماة.

وكان يذهب إلى مجتمعات الناس ليعلمهم ويرشدهم فإذا ذُكِّر بتعبه ومرضه قال: ماذا أصنع هذا واجبي وهم لا يحضرون الدروس في المساجد.

وكان يرى أن سبب انتشار الفساد هو سكوت العلماء، وله في ذلك كلمة جليلة منها:

"والله ما أفشى المنكرات وعممها وجعلها ظاهرة لا يبالى بها إلا إغضاؤنا على القذى وسكوتنا على الباطل وممالأتنا لأصحابه، ما ضر الجماهير شيء كسكوت الواعظين حين يرون المخالفات العلنية فلا يزجرون عنها".

ولذلك كله فإن الشيخ لم يحج إلا حجة واحدة فقط، فكان يقول: "كيف أذهب إلى الحج وأترك البلد خالية ليس فيها من يُفتيها ويحل قضاياها الشرعية بعد أن ذهب معظم العلماء إلى الحج؟ كيف أذهب إلى حج النفل وأترك طلابي في المدرسة وهم أمانة في عنقي أسأل عنهم أمام الله تعالى".

ـــ قوته في الحق:

كان الشيخ -رحمه الله تعالى- قوياً في الحق، لا يهادن فيه أحداً؛ حتى أقرب المقربين إليه، وقد هجر أخاه عبدالغني زماناً طويلاً بسبب شذوذه في فهم آية من كتاب الله تعالى.

وكان يرفض حضور الحفلات الرسمية لما فيها من اختلاط بين الرجال والنساء.

وكان ينـــزع خواتم الذهب بيده من أيدي الكبراء والوجهاء.

وحضر مرة عند أحد أصدقائه وكان هناك شاعر حموي، وهو طبيب فتلفظ بكلام لم يَرُق للشيخ، فأنكر الشيخ ذلك وغادر المجلس.

وأثناء تداويه في بيروت قال له أحد المتصوفة إن النبي صلى الله عليه وسلم خُلق من نور، فاستتابه الشيخ -رحمه الله تعالى- وجدد إسلامه وعقد نكاحه، بعد أن أخبره أن هذا القول كفر، وأن النبي صلى الله عليه وسلم خلق كما خُلق سائر البشر.

ـــ صفاته:

كان جريئاً قوياً في الحق، مداوماً على الذكر وقراءة القرآن، غزير العَبْرة كثير البكاء، ناصحاً، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، مشفقاً على أصحابه وإخوانه، بعيداً عن النـــزاع والشقاق، مستمسكاً بالنصوص الشرعية.

وكان ورعاً، وله في الورع قصص عجيبة تذكّر بورع السلف، خاصة في طلب المال الحلال والتعامل مع الباعة والعمال، رحمه الله تعالى.

قال فيه الشيخ الطنطاوي رحمهما الله تعالى:

"كنت أخالف الشيخ في مسائل الفقه ... وأشهد مع ذلك أن الشيخ كان صادقاً مع الله، صادقاً مع نفسه، وقد جعل الله له من الأثر في الناس ما لم يجعل لعشرات من أمثالي".

وقد صحبه في مصر فوجده "صاحب نكتة، وفي روحه خفة على القلب، وفي سلوكه أنس للنفس.

ـــ تنازع التصوف والسلفية في صدره وعقله:

كان للشيخ مشايخ سلفيون منهم خاله الشيخ سعيد الجابي -كما سبق ذكره- وكان قد اتجه إلى الدعوة السلفية في بداية حياته، ثم

تحول عنها إلى التصوف في حلب وناله بذلك بعض الأذى، وكان له شيخ صوفي أثير لديه وهو الشيخ أبو النصر خلف، فكان يرى في شيخه أبي النصر سمات الزهد والورع والتقوى وانضباط المسلك لكنه إذا قرأ في كتب المتصوفة مثل "الإنسان الكامل" للجيلي، وكلام ابن عربي ضاق صدره وراجع شيخه.

وفي الوقت نفسه كان يحب الكتاب والسنة ولكنه إذا رأى من بعض السلفيين الدعوة إلى نبذ كتب الفقه، والأخذ من الكتاب والسنة ونبذ آراء الفقهاء ضاق صدره، فإذا رأى جفاف قلوب بعضهم وقسوتهم وشدتهم ضاق صدره أيضاً وأخبر شيخه بذلك.

وقد ألف رسالة في الرد على هؤلاء المتفلتين من زمام الفقه والفقهاء سماها "لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسماً للفوضى الدينية".

وكان يقول -مُوَفِّقاً بين الصوفية الصحيحة والسلفية الصادقة-:

"السلفية الحقة تجتمع مع الصوفية الصحيحة متى حسن الفهم وصح العزم على الجمع الذي هو شأن الدعوة وأَرَب الإخوان، وإذا زخرت الصوفية بالروحانية الغامرة والرقة العميقة فليست بمنكرة على أختها السلفية تحريها تنقية الإسلام مما لابسه من الغرائب عنه كي يعود إلى صفائه وخلوصه".

وكان يقول:

"العلم هو الأمير على التصوف"، وهذا ضابط حسن.

ـــ حبه للعلم :

لقد كان الشيخ -رحمه الله تعالى- متعلقاً بالعلم الشرعي مؤثراً له على كل شيء حتى أنه قال عن نفسه: "وإني أحمد الله على توفيقه وتيسيره إياي للتوسع العلمي ووضعه الشغف به في قلبي حتى أني لأوثر العلم على اللذائذ المادية التي يقتتل الناس عليها، ولو أني خُيرت بين الملك والعلم لاخترت العلم على الملك والسلطان".

وكان لا ينقطع عن مذاكرة العلم حتى في أوقات خروجه للنـــزهة.

وكان قد استفاد من الأزهر البحث العلمي الدقيق فكان يظهر في مؤلفاته أثر ذلك.

ـــ اهتمامه بأهله:

كان الشيخ رحمه الله حسن الالتفات إلى زوجه فعلمها العلم الشرعي وهذب أخلاقها، وإلى أولاده فعلمهم وهذبهم، وهذا عمل قَلّ مَن يلتفت إليه من المشايخ الذين تزدحم عليهم أعمالهم وأشغالهم فلا يلتفتون إلى أهلهم حق الالتفات ولا يحسنون القيام على شؤونهم قياماً حسناً، وهذا هو أحد الأسباب في أن أولاد المشايخ والعلماء والدعاة قَلّ منهم من يتابع مسيرة أبيه.

ـــ من مؤلفاته:

للشيخ عدد من الكتب منها "نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام" نقد فيه كتاب الدكتور مصطفى السباعي.

وكتاب "ردود على أباطيل" في جزئين.

و"حكم الإسلام في الغناء".

و"حكم اللحية في الإسلام".

وكتاب في تحريم نكاح المتعة.

و"رحمه الإسلام للنساء".

"وحكم الإسلام في مصافحة المرأة الأجنبية" وغير ذلك رحمه الله تعالى.

ــ شعره:

كان الشيخ رحمه الله شاعراً موهوباً له شعر جيد وأخوه بدر الدين شاعر جيد، كان له شعر جهادي قوي أيام الفرنسيين، واشتهر بقصائده الوطنية:

ومن شعر الشيخ:

آهاً على وادي حما ... ة إذا نسيم الصبح هبّا

آها على تلك الربو ... ع وأهلها بعداً وقرباً

النهر يخترق الريا ... ض وقد جرى حلواً وعذباً

دولابه يبكي ويس ... قي الدمع فاكهة وأبّا

أنّى أرى ذاك الحمى ... إني رأيت البُعد صعبا

وقال -من قصيدة- عندما خرج من مصر وانتهى من الدراسة النظامية فيها:

ذُبت يا مصر مُذ عزمت رحيلاً ... ولو استطعت عشت فيك طويلاً

وقال أيضاً:

ياعين جُودي بدمع منك مدرارِ ... على زمان مضى والأهل والدارِ

أيام أرتع في ظل النعيم ومن ... طيب حسرة قد قضيت أوطاري

فإن ذكرت الحمى حَنّ الفؤاد له ... إذ في المصائب قد قضيت أسفاري

لكن الشيخ على كثرة أشعاره آثر العلم على الشعر، وقد كتب في هذا الأمر رسالة إلى بعض تلاميذه يقول فيها:

"يابني لأَن تكون عالماً فقيهاً خير لك وللأمة من أن تكون شاعراً أديباً، إننا إلى أن يكون منك عالم محقق أَحْوَجُ منا أن ينشأ منك شاعر مُفلق.. لابأس بقليل منه يُنظم في الأغراض الشريفة والمقاصد الحسنة، أما انصراف الهمة إليه فخسرانٌ أَرْبأُ بك عنه.. ".

ـــ وفاته:

توفي في حماة سنة ١٣٨٩/١٩٦٩ عن قرابة ستين سنة رحمه الله تعالى على أثر مرض في الكبد لم يمهله طويلاً، وكانت جنازته حافلة.

وكان قد تعالج في بيروت قبل أسابيع من وفاته لكن ذلك لم ينفعه، رحمه الله تعالى ونفع بعلمه.

ومن عجائبه في مرضه أنه لم يكن يقبل أن يُنقل إليه دم إلا أن يكون دم رجل صالح، ويقول: "لا أحب أن يخالط دمي إلا دم مؤمن ركع لله وسجد".

٣- رائد التجديد الشامي
طاهر الجزائري

١٢٦٨ – ١٣٣٨

١٨٥٢ – ١٩٢٠

عاش الشيخ رحمه الله في زمن عصيب، فقد كانت الأمة الإسلامية في إدبار وتراجع، وكثير من ديار الإسلام في يد الكافرين يعبثون بثرواتها ويغيرون من عقائد أهلها وأخلاقهم، وليس هنالك كبير أمل في العودة إلى السيادة والعز والتمكين، في تلك الأحوال الصعبة والدياجير المظلمة عاش الشيخ طاهر الجزائري، وحاول أن يصلح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وطرق أبواباً عدة لكنه لم يجد على الخير أعواناً كما وصف النبي صلى الله عليه وسلم أهل الحق في آخر الزمان.

ولد في دمشق سنة ١٢٦٨/١٨٥٢، وأصله من الجزائر من قبيلة سمعون التي كانت تقيم في منطقة القبائل، وكان والده صالح بن أحمد السمعوني من قضاة الجزائر المالكية فخرج من الجزائر إلى دمشق واستقر فيها وأصبح مفتياً للمالكية، وذلك سنة ١٢٦٣/١٨٤٧ أي بعد احتلال فرنسا للجزائر بسبعة عشر عاماً تقريباً، وكان ذلك بسبب توقف ثورة عبدالقادر الجزائري ونفيه، فهاجر هو ومجموعة من مشايخ الجزائر في سنة عُرفت بسنة هجرة المشايخ.

درس الشيخ طاهر في المدرسة "الجُقْمُقِية" مبادئ العلوم المختلفة، وأتقن العربية والفارسية والتركية وكان ينظم بهذه اللغات الثلاث الشعر، وتعلم الفرنسية والسُريانية والعبرانية والحبشية والبربرية!!

أما العربية فقد أتقنها حتى كان يوصف بأنه "لسان العرب وخزانة الأدب".

وكان له شيخ اسمه عبدالغني الميداني قد أثر فيه تأثيراً عميقاً، وأبعده عن التعلق بالخرافات.

ـــ وظائفه:

ـــ درّس في المدرسة الظاهرية الابتدائية.

ـــ كان عضواً في الجمعية الخيرية التي أسسها هو وعلاء الدين عابدين وبهاء بك مكتوبجي سنة ١٢٩٤ التي أصبحت "ديوان معارف" في عهد الوالي مدحت باشا، وهي جمعية تُعنى بنشر العلم، وترميم المدارس والمساجد، ومقاومة النشاط التنصيري.

ـــ عين مفتشاً عاماً على المدارس الابتدائية سنة ١٢٩٥، ثم مفتشاً عاماً للمعارف في ولاية سورية فتعهد المدرسين بالنصح والتوجيه، وبذل جهوداً كبيرة في سبيل إصلاح التعليم.

ـــ عُين سنة ١٣١٦/١٨٩٨ مفتشاً على دور الكتب العامة في ولاية سورية ومتصرفية القدس.

ـــ عُين عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

حلقة دمشق الكبرى:

كان الشيخ طاهر يعقد حلقة فكرية كبرى كل يوم جمعة بعد الصلاة في مترل رفيق العظم، ويحضرها كبار المفكرين والمصلحين مثل جمال الدين القاسمي العالم المفسر المشهور، ورئيس علماء الشام سليم البخاري، وعبدالرزاق البيطار العالم المشهور صاحب "حِلْية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر"، ومنهم الدكتور عبدالرحمن الشهبندر،

ومنهم سليم الجزائري ابن أخيه، ومحمد كرد علي وغيرهم، وكان يثير في الحلقة قضايا الإصلاح والنهضة والأخذ بالصالح من الحضارة الغربية، ودراسة التاريخ والتراث، واللغة العربية وآدابها، والدعوة إلى التمسك بمحاسن الأخلاق.

ـــ لكن الشيخ طاهراً لم يستطع أن يوسع من هذه الحلقة ليجعلها بداية حقيقية لنهضة شاملة من بعده؛ أو لتكون الصلة بين المفكرين والمصلحين والمثقفين وبين سائر طبقات الشاميين، ولعل مرد ذلك إلى شدة وطأة الحكم الاستبدادي على الشاميين خاصة من قبل الاتحاديين الملاحدة الذين أمسكوا بزمام الدولة العثمانية بعد السلطان عبدالحميد، ومرد ذلك أيضاً أن البلاد لم تكد تستفيق من الحرب العالمية الأولى إلا لتجد نفسها في براثن الاحتلال الفرنسي.

وقال الأمير الشهابي في هذه الحلقة:

"في تلك المدة التي قضاها الشيخ طاهر الجزائري بالشام كان يتحلق حوله في دمشق صفوة من المتعلمين والنبهاء والمفكرين العرب فتألف من جمعهم أكبر حلقة أدبية وثقافية، كانت تدعو إلى تعليم العلوم العصرية ومدارسة تاريخ العرب وتراثهم العلمي وآداب اللغة العربية والتمسك بمحاسن الأخلاق الدينية، والأخذ بالصالح من المدنية الغربية".

ـــ أفكاره وأعماله في الإصلاح:

كان للشيخ -رحمه الله تعالى- يد طولى في الإصلاح، وكان يرى التدرج فيه، فمن أقواله في هذا الباب:

"الإصلاح -على اختلاف أنواعه- لابد أن يكون على سبيل التدرج؛ لأن ما يأتي على جناح السرعة لا يلبث أن يرجع من حيث أتى".

وقال: "إن هذه الطريق يطول أمرها ولكن يؤمن فيها العِثار والسلامة محققة".

- ومن أهم ما وضعه من قواعد إصلاحية وقام عليها بنفسه ما يلي:

١. التعليم:

وقد فتح في ذلك المدارس وألف الكتب التعليمية كما سيأتي، وكان يرى أن التعليم هو الأساس للإصلاح، وهذا حق فقد كان الجهل في أيامه منتشراً انتشاراً عجيباً.

وباشر التعليم بنفسه فقد كان مدرساً في المدرسة الظاهرية الابتدائية وهو في السادسة والعشرين من عمره.

٢. الاهتمام باللغة العربية:

وقد استطاع أن يقنع الوالي العثماني بتعليم العلوم باللغة العربية، لكن بعد عزل الوالي عاد التعليم بالتركية.

وألف بعض الكتب لتعليم العربية.

٣. الاهتمام بالعلوم العصرية:

كان الشيخ معروفاً بحبه لأخذ النافع من العلوم والفنون الغربية، وفي هذا يقول تلميذه المقرب محمد كرد علي:

"اتسع صدر الشيخ لجماع علوم المدنية الحديثة إلا الموسيقى والتمثيل فلم يكن له حظ فيهما[1]... وسياسة الشيخ في التعليم محصورة في تلقف المسلمين أصول دينهم والاحتفاظ بمقدساتهم وعاداتهم الطيبة وأخلاقهم القديمة القويمة، وأن يفتحوا قلوبهم لعامة علوم الأوائل والأواخر من فلسفة وطبيعي واجتماعي على اختلاف ضروبها".

وقد أرسل رسالة إلى تلميذه محمد كرد علي بيّن فيها منهجه المعتدل في هذه المسألة فقال:

"إن الاقتباس من الأمم المترقية دليل على النباهة، لا كما يظن البُله من أن في الاقتباس غضاضة، ونريد بالاقتباس ما يُشعر به اللفظ من تلقي الأمور النافعة، لا كما يظن بعضهم من أن الأمم الراقية ينبغي أن يؤخذ منها كل شيء، حتى أدى بهم الأمر أن يقلدوهم في الأمور التي يودون هم أن يخلصوا منها".

٤. الصلة بالمستشرقين:

كان الشيخ على صلة ببعض المستشرقين، وكانوا يسألونه عن بعض القضايا المتعلقة بأبحاثهم، وكان بينه وبين بعضهم صداقة مثل جولد زيهر اليهودي المجري، ومرغليوث اليهودي الإنجليزي، لكن لابد من ذكر أن الشيخ -رحمه الله- كان ذا دين ووعي يحميانه من شبهات المستشرقين، وكان متنبهاً إلى ألاعيبهم ومؤامراتهم وكيدهم،

---

(١) وهذا من فضل الله عليه وعنايته به.

إلى حد ما، لكن بعض تلاميذه لم يكونوا كذلك فافتقدت علاقتهم بالمستشرقين التوازن المطلوب الذي كان سِمة من سمات الشيخ طاهر -رحمه الله تعالى- فظهر هذا النقص في بعض أعمالهم وأفكارهم، حتى أن بعض أولئك التلاميذ كان يدعو إلى فصل الدين عن الدولة أي "العلمانية" ويؤيد ذلك بقوة!!

٥. إصلاح العادات ومحاربة الخرافات والخزعبلات:

ومن أجل ذلك كان ينسخ كتب المصلحين ويبيعها بثمن زهيد في سوق الوراقين، فعل ذلك بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وأبي شامة وغيرهم، رحمة الله تعالى عليهم.

٦. الاهتمام بالصحافة والأدب:

وكان يشجع على إنشاء الصحف السياسية، والاجتماعية، والمجلات العلمية والأدبية.

٧. نشر الكتب المفيدة:

ومن أجل ذلك تعلم كثيراً من اللغات والخطوط القديمة ليتسنى له دراسة الآثار.

وعني بجمع المخطوطات منذ كان عمره سبع سنوات فاجتمعت له آلاف الكتب والمخطوطات النادرة.

قال تلميذه محمد سعيد الباني:

"لا أعلم أن أحداً من معاصري فقيدنا أحاط بمعرفة الكتب المدونة بلسان العرب مثل إحاطته، فما من كتاب مخطوط أو مطبوع

إلا وقد اطلع عليه، أو عرف عنه شيئاً في الجملة، فقد كان -رحمه الله- معجم كتب سيّار يضارع: "كشف الظنون" أو "فهرست ابن النديم"، فكم من كتب دفينة كالركاز أرشد إليها، وكم من كتب برزت إلى عالم الطباعة بدلالته وهديه".

٨. إصلاح السياسة:

كان الشيخ يعادي الأتراك خاصة الذين تحكموا في بلاد الشام وجهّلوها وحاربوا المفكرين والمصلحين فيها، وقد تخوف منه الأتراك فعزلوه من بعض وظائفه التي يشرف فيها على الطلاب في بلاد الشام لئلا تؤثر فيهم أفكاره الإصلاحية التي كان الأتراك يرون فيها خطورة على مصالحهم آنذاك؛ وفتشوا بيته مراراً، وحامت حوله الظنون، وأُحيط بالعيون، حتى اضطر إلى مغادرة الشام إلى مصر.

وكان يكره حكم السلطان عبدالحميد -كحال أكثر مفكري الشام آنذاك- لكنه كره مَن جاء بعده أكثر.

قال تلميذه الأستاذ محمد سعيد الباني موضحاً موقف الشيخ طاهر من جماعة الاتحاد والترقي التي سيطرت على الدولة العثمانية بعد عزل السلطان عبدالحميد:

"بعد سقوط السلطان عبدالحميد، وبينما كنا مبتهجين بهذا الانقلاب السعيد!![١] ثَمِلين بخمرة الحرية نقدس أبطالها، نقيم الحفلة بعد الحفلة أخبرنا بعض القادمين من مصر بأن أستاذنا الجزائري ناقم

---

(١) كان معظم المثقفين والمفكرين السوريين ضد السلطان عبدالحميد وذلك لأن اليهود والاتحاديين شوهوا صورته، ووصموه بأسوأ الصفات.

على هذه الحال، غير راضٍ عن جمعية الاتحاد والترقي، إذ قال: ما هذا الانقلاب الخَلاّب إلا انتقالٌ من نِير استبداد الفرد إلى نِير استبداد الجماعات، وقد استغربنا هذا عن شيخنا، ومن ثَمّ ثبت لنا أنا كنا مخطئين بحسن الظن بالاتحاديين، وكنا نعجب بعد ذلك بقوة حدسه وصدق فراسته".

ثم كان الشيخ طاهر أول المطلوبين للإعدام في مدة جمال باشا السفاح في بلاد الشام، حيث نصب الاتحاديون المشانق لكل من كان ينادي بالإصلاح والحرية على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم، لكنه نجا فقد كان في مصر -آنذاك- وأُعدم مجموعة منهم سليم بيك الجزائري ابن أخيه، وقد كان أحد أركان حرب الجيش العثماني.

وكان الشيخ يحسن الظن بالانكليز -للأسف- ويرى أنهم مشاعل حضارة!! لذلك اتصل بامرأة تُدعى "مِسْ بِلْ" وكانت أمينة سر حاكم العراق لما سقط بأيدي الانجليز، وطلب منها إحسان معاملة العراقيين!! ولذلك كله فرح بالثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين سنة ١٩١٦ بمساعدة الانكليز، ولما دخل فيصل بن الحسين دمشق دعا إلى مناصرة الثورة والوقوف بجانبها، وهذا كله وقع فيه الشيخ لحبه الشديد للإصلاح، وضعف تقديره لخطورة الانكليز وخداعهم المسلمين.

ـــ جهوده:

ـــ ألف الشيخ كتب التدريس للمرحلة الابتدائية في جميع فروعها آنذاك فمنها "مدخل الطلاب إلى علم الحساب"، و"رسالة في

النحو"، و"مُنية الأذكياء في قصص الأنبياء"، و"الفوائد الجسام في معرفة خواص الأجسام"، و"إرشاد الألبّاء إلى تعليم ألف باء" وغيرها، وهذا يدل على سعة علم الشيخ رحمه الله تعالى.

ـــ كان يدعو الأكفاء لإنشاء المجلات العلمية والأدبية والصحف السياسية والاجتماعية.

ـــ وكان له عناية جليلة بالتاريخ والآثار وإحياء التراث.

ـــ فتح تسع مدارس في مدينة دمشق، منها اثنتان للبنات.

ـــ أنشأ المكتبة الظاهرية في دمشق، وهي من أشهر المكتبات العربية، وتسمى الآن مكتبة الأسد، ثم عُين مديراً لها بعد ذلك.

وقد جمع في المكتبة كثيراً من الكتب التي تفرقت في الجوامع والمدارس، حتى أنه هُدد بالقتل من قبل أولئك المستفيدين من نهب هذه الكتب، وصارت بهذا أول مكتبة عامة في دمشق، وصنع لها الفهارس المفيدة فصار الشيخ بهذا علماً من أعلام الببيلوجرافيا في العصر الحديث، وكان يشتري للمكتبة كل ما تقع عليه يده من نفائس الكتب والمخطوطات.

وأسس مكتبات عامة في حماة وحمص وطرابلس الشام.

ـــ وأنشأ المكتبة الخالدية في القدس بمساعدة آل الخالدي، عجل الله برجوعها.

أنشأ مطبعة حكومية لتطبع المؤلفات العامة والكتب المدرسية.

ـــ انتقاله للقاهرة:

كان لأنشطة الشيخ المتنوعة ولأفكاره المنوِّرة أثر ظاهر في أهل دمشق، فأثار هذا حفيظة رجال الأمن الذين لا يفهمون مغزى هذه الأعمال وأثرها الجليل فضيقوا الخناق عليه، وهجموا على بيته وعاثوا فيه فساداً فتوارى عن الأنظار، ثم آثر الانتقال إلى مصر التي وصلها سنة ١٣٢٥/١٩٠٧ وسكن فيها في بيت صغير في حي عابدين، واجتنب الناس إلا بعض العلماء الذين كانوا يترددون عليه ليستفيدوا منه.

وفي القاهرة قضى وقته في التأليف والبحث، وشارك في تحرير بعض الصحف، وكان له مراسلات مع المستشرقين.

وكان قد رفض عرضاً للتوظف في دار الكتب، وعاش في مصر زاهداً مكتفياً بالقليل.

وظل في القاهرة ثلاثة عشر عاماً حتى سقطت الدولة العثمانية في آخر الحرب العالمية الأولى وقامت الدولة العربية فيها وملكها فيصل بن الحسين، فعاد إلى دمشق، سنة ١٣٣٧/١٩١٩، وعُين مديراً لدار الكتب الظاهرية التي أسسها، وعضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

ـــ صفاته:

كان الشيخ يسافر بين الفينة والأخرى إلى بعض البلاد الأوروبية والعثمانية فاتسع أفقه وكثرت معارفه.

ــ ولم يتــزوج الشيخ فتيسر له وقت طويل لم يتيسر لكثير من أقرانه ممن أثقلهم الأهل والأولاد وطلب المعيشة.

ــ وكان زاهداً يرضى بالقليل، يقضي ليله بالمطالعة من مصباح زيتي، وكان يضع قدره التي يطبخ فيها طعامه فوق المصباح بحيث تُنضج الطعام في عدة ساعات!!

وكان يؤثر الفقراء والمساكين على نفسه ويتصدق عليهم سراً، وربما يبيت الليلة والليلتين جائعاً لأنه تصدق بكل ما لديه من طعام إلى جائع لقيه.

ــ وكان الشيخ على قدم الجزائريين الذين عُرفوا بحدة الطبع وكراهية المجاملة والنفاق والمحاباة.

ولم يُعرف عنه مخالطة الظلمة، ولم يصحب غنياً للانتفاع بماله، وكان يؤثر الخمول وعدم الظهور.

وكان يكره الغيبة ويحارب البدع والخرافات.

وكان محافظاً على وقته يغضب ممن يخلف موعده معه.

وكان لأجل إرادته الحفاظ على وقته لا يهتم بمظهره، وكان يأكل مما يحمله في جيبه من الكعك أو الخبز وهو في طريقه إلى الدرس.

ومن عجائبه في حفاظه على وقته أنه كان يلبس -إذا سافر- ألبسة داخلية بعضها فوق بعض فكلما اتسخ منها شي مما يلاصق جسمه رمى به إلى القمامة حتى يتسخ الذي يليه وهكذا دواليك!! وذلك لأنه لا يجد وقتاً لغسله وهكذا حتى تنتهي الطبقات.

ونام مرة عند بعض معارفه وقت القيلولة فرأت زوجه أن جبة الشيخ بحاجة إلى إصلاح فأخذتها وبدأت في خياطتها، فاستيقظ الشيخ وطلب جبته فأخبره صاحب البيت بأن زوجه ترفوها فأعجله بطلبها حتى دفعت بها زوجه إليه ولبسها والإبرة والخيط يتدليان منها!!.

ــ وكان قوي الحافظة جداً لا يكاد ينسى ما يقرأه مهما طال به العهد.

ــ وكان يحب السباحة والمشي ومعرفة الناس، وكان نشيطاً سريع الحركة.

وكان صحب همة عجيبة في السهر فقد قال تلميذه الأستاذ محمد كرد علي:

"أَلِف الشيخ مدة أربعين سنة أن يسهر مع أصحابه إلى الهزيع الثاني من الليل، ثم ينقلب إلى منـــزله يؤلف ويقرأ حتى يصلي الصبح، وينام إلى الظهر".

ــ من مواقف الشيخ رحمه الله تعالى:

ذهب إلى القاهرة فاحتاج إلى المال فباع ما عنده من كتب ومخطوطات لدار الكتب المصرية، ورفض أن يبيعها لمكتبة المتحف البريطاني بضعف الثمن؛ ضنّاً منه بالتراث الإسلامي أن يقع في أيدي أعداء الإسلام.

ــ ولما علم الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب مجلة "الفتح" المشهورة بحاجة الشيخ شفع له لدى الخديوي عباس حلمي الثاني

ليجري عليه راتباً من الخزينة الخاصة فرفض الشيخ طاهر هذا العرض بإباء وغضب غضباً شديداً -وكان فيه حدة- فقال الأستاذ محب الدين الخطيب في هذا: "ظهر لي أنني لا أزال أجهل تلك النفس الكبيرة رغم معرفتي بصاحبها منذ طفولتي؛ فقد غضب الشيخ طاهر من هذه الحادثة غضباً لم أعهده فيه من قبل".

ـــ من الأقوال في بيان عظمة الشيخ طاهر:

ـــ قال فيه المفسر العالم الشيخ جمال الدين القاسمي:

"الشيخ المفيد والمُرَقِّي الوحيد".

ـــ وقال فيه الشيخ علي الطنطاوي:

"ترك أثراً من الخير أينما حَلّ، فكان مجلسه حيثما حل مدرسة، ولقاؤه أينما لقيته درس ... وكان يعلم بفعله لا بقوله ... لم يكن يضيع من وقته لحظة في عمل غير نافع، ودعا إلى ترك المجاملات والرجوع إلى أخلاق المسلمين الأولين من الصراحة والصدق وقصد الحقائق وترك الأباطيل فكانت حياته كلها كذلك".

وقال فيه أيضاً:

"كان الشيخ طاهر من المؤلفين المكثرين إن عُد المؤلفون المكثرون، وكان من أئمة المربين إن ذكر المربون، وكان من رؤوس المصلحين ومن العلماء العاملين، وكان من الأركان الكبار في هذه النهضة التي نأوي اليوم إليها ونتفيأ ظلالها وننعم بخيراتها".

ـــ وقال فيه تلميذه سعيد الباني:

"جمع بين المعقول والمنقول، ومزج القديم بالحديث، أخذ من كل علم لُبابه... فكنت تجد منه العالم الديني والمدني والرياضي والطبيعي والسياسي والأديب والمؤرخ والأثري والاجتماعي والأخلاقي والكاتب والشاعر فكان عنده من كل علم خبر فهو دائرة المعارف ومفتاح العلوم وكشاف مصطلحات الفنون وقاموس الأعلام".

ـــ وقال فيه تلميذه الأثير محمد كرد علي:

"كان متضلعاً من علوم الشريعة، وتاريخ الملل والنحل، منقطع القرين في تاريخ العرب والإسلام، وتراجم رجاله ... وكان إماماً في علوم اللغة والأدب ... إنه خزانة علوم متنقلة".

ومن أجمع ما قيل فيه قول تلميذه محمد كرد علي:

"لولا ما قام به من التذرع بجميع ذرائع الإصلاح لتأخرت نهضة المسلمين في بلاد الشام أكثر من نصف قرن".

وقال فيه شيخ العروبة صديقه أحمد زكي باشا:

"كنت أرى فيه الأثر الباقي والمثال الحي، والصورة الناطقة لما كان عليه سلفنا الصالح، من حيث الجمع بين الرواية والدراية في كل المعارف الإسلامية، وبين الدأب على نشرها بعد التدقيق والتمحيص".

وقال فيه الأستاذ أنور الجندي رحمهما الله تعالى:

"والحق أن الشيخ طاهر الجزائري العملاق لم يكن قويّ الأثر في هذه المجموعة من رجال الشام وحدها ولكنه كان عميق الأثر في المجموعة التي عرفها وعاشرها في القاهرة خلال حوالي أربعة عشر عاماً

أقامها في مصر، وقد ألهب وجدان من عاشره وخاصة الأحمدين أحمد تيمور باشا وأحمد زكي باشا الملقب بشيخ العروبة ليس بأسلوبه وحديثه فحَسْبُ ولكنه بأسلوب عيشه ونظام حياته".

ـــ مؤلفاته:

للشيخ -رحمه الله تعالى- كتب كثيرة تبلغ أربعين منها:

"الجواهر الكلامية في العقائد الإسلامية"و كان على عقيدة السلف، رحمه الله تعالى.

"التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن".

"توجيه النظر إلى أصول الأثر".

"تفسير القرآن الحكيم".

"مختصر أدب الكاتب" لابن قتيبة، وقد طبع بمصر.

"مختصر البيان والتبيّن" للجاحظ، وهو مطبوع.

ـــ أما أفضل أعماله فهو كتاب مخطوط في عشرين مجلداً يبحث في نوادر المخطوطات ومحال وجودها ومزاياها سماه "التذكرة الطاهرية".

ـــ وفاته:

توفي رحمه الله تعالى سنة ١٣٣٨/١٩٢٠ بعدما اشتد به المرض، ودفن في سفح جبل فاسيون كما وَصّى.

٤- العالم المجاهد

عمر مكرم

١١٦٤ – ١٢٣٧

١٧٥٠ – ١٨٢٢

هناك مئات الآلاف من العلماء على مدار تاريخ الإسلام لكن قليلاً من هؤلاء من كان يحمل هموم أمته وآلام شعبه، ويجاهد في سبيل الله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحتسب على الحكام، ومن هؤلاء القليل كان الشيخ الفاضل العالم نقيب الأشراف عمر مكرم.

عاش رحمه الله تعالى في زمن الإدبار وذهاب هيبة الأمة الإسلامية، وتربص أعدائها بها الدوائر، وكانت الدولة العثمانية آنذاك في طور الانحدار فلم تستطع أن تصنع كبير شيء مع المكايد التي كانت تترى عليها في كل وقت، والمؤامرات التي تحيط بها من كل جانب، في تلك المدة المظلمة عاش سماحة الشيخ المجاهد عمر مكرم بن حسين السيوطي.

ولد سنة ١١٦٤/١٧٥٠ في أسيوط، من أسرة شريفة النسب، تنتهي إلى الأدارسة، وانتقل إلى القاهرة للدراسة في الأزهر، وعُني بالفقه، وتخرج في الأزهر، واقتنى مكتبة كبيرة ما زال جزء منها محفوظاً في دار الكتب المصرية باسمه، لكنه لم يشتغل بتأليف الكتب ولا بالدروس لأنه كان بطبعه ميالاً إلى المشاركة في الشأن العام وسياسة الشعب والاهتمام بأمور المجتمع المصري.

بداية ظهور السيد وعلو شأنه:

وكانت بداية بروز السيد عمر مكرم لما اختل الأمر في الديار المصرية بوقوع التنازع بين أمراء المماليك وتسابقهم في ظلم الشعب، فأرسلت الدولة العثمانية حسن باشا الجزائرلي لتأديب المماليك خاصة

الأميرين مراداً وإبراهيم الذين فَرّا إلى الصعيد، فلما عاد حسن باشا إلى بلاده سنة ١٧٩١/١٢٠٥ توسط الأميران لدى الحكومة العثمانية في القاهرة ليعودا إليها، وكان رسولهما في هذا هو السيد عمر مكرم لصداقة بينهم، فنجح في مهمته وعاد الأميران للحكم.

وبعد ثلاث سنوات من هذه الحادثة توفي السيد محمد البكري نقيب الأشراف وشيخ السادة البكرية ولم يكن له عقب فأسند الأميران نقابة الأشراف إلى السيد عمر مكرم عرفاناً بالجميل ووفاءً له، وكان ذلك سنة ١٧٩٣/١٢٠٨، وكان هذا بداية ظهوره في المجتمع المصري.

ثم عظم شأنه بعد ذلك؛ إذ أن الأميرين عادا إلى سيرتهما القبيحة وظلمهما للشعب، فثار الشعب المصري عليهما سنة ١٧٩٥/١٢٠٩ وكادت تحدث فتنة فاجتمع الأمراء والباشا التركي في بيت الأمير إبراهيم، وتعهد الأميران مراد وإبراهيم وسائر الأمراء بكف أيديهم عن الشعب وتحري العدل ورفع المظالم وصرف الأموال إلى مستحقيها وإرسال مخصصات الحرمين، ورفع الضرائب المستحدثة وأن يسيروا في الحكم سيرة حسنة، وكُتبت وثيقة بذلك وخُتمت من قِبَل الأميرين، ومن الباشا التركي، وكان السيد عمر مكرم ممن اشترك في كتابة هذه الوثيقة، وهذا مما رفع من مكانته بين قومه.

السيد عمر مكرم والحملة الفرنسية على مصر:

ولما احتل الفرنسيون مصر سنة ١٧٩٩/١٢١٣ هرب الأميران مراد وإبراهيم بعد معركة قصيرة مع الفرنسيين وتركا الشعب المصري لمصيره، وهنا نادى السيد عمر مكرم في المصريين بالجهاد، وصعد إلى

القلعة ونشر علماً كبيراً كان يُسمى "البيرق النبوي" ونـــزل من القلعة إلى بولاق -وكان حَيّاً في أطراف القاهرة آنذاك- والناس حوله ألوف مؤلفة يحملون العصي والنبابيت وهم يهللون ويكبرون وقد امتلأوا حماسة وحباً للجهاد، لكن مالذي تغنيه قوتهم وعتادهم الضعيف أمام أسلحة الفرنسيين الحديثة خاصة أن جيش المماليك قد هُزم ولاذ بالفرار؟!

وهنا رأى المشايخ مثل الشرقاوي شيخ الأزهر، والشيخ السادات أن يستسلموا ويسلموا البلد للفرنسيين لكن عمر مكرم رفض أن يدخل القاهرة وآثر أن يصحب جيش إبراهيم بك في تقهقره إلى الشمال نحو المنصورة ثم إلى سيناء فالشام وجيش الفرنسيين يتبعهم.

ثم لجأ عمر مكرم إلى يافا وبقي فيها حتى فتحها نابليون، الذي حرص على إكرامه وإعادته إلى مصر عن طريق دمياط، ودخل القاهرة بعد غياب ثمانية أشهر فلم يشهد ثورة المصريين الأولى على الفرنسيين التي وقعت بعد ثلاثة أشهر من الاحتلال إنما شهد الثورة الثانية.

ولما عاد إلى مصر رفض أن يشترك في ديوان الحكم الذي أقامه الفرنسيون لتسيير أمور المصريين، ولم يطلب استرجاع مكانه في نقابة الأشراف ولا في نظارة الأوقاف اللتين كان يديرهما من قبل، ولم يرضِ أن يطلب من الفرنسيين أن يردوا له أملاكه التي صادروها عزة وأنفةً ورفضاً للاحتلال.

ثورة القاهرة الثانية على الفرنسيين:

في ٢٣ شوال سنة ١٢١٤/مارس ١٨٠٠ ثار المصريون على الفرنسيون ثورهم الثانية -ولها قصة يطول ذكرها- وقصد الشعب السيد عمر مكرم ينادونه ويهتفون باسمه فلم يخيب ظنهم وسارع بالنـــزول إلى الشوارع، وقاد الثورة الشعبية ومعه بعض الأمراء والكبراء والشجعان، وأمر أهل القاهرة ببذل الأموال فسارعوا لتلبيته أمره، وتحرك السيد عمر مكرم من شارع إلى آخر، ومن موقع إلى موقع يحمس الناس ويثبتهم ويشد من عزيمتهم.

ولما وقع الصلح أخرج الفرنسيون بقايا عسكر الترك من مصر وأباحوا لمن أراد من المصريين أن يخرج معهم فخرج السيد عمر فيمن خرج مؤثراً الغربة وتحمل المشاق على البقاء في بلاده وهي محتلة، وذلك هو خروجه الثاني، في أول ذي الحجة سنة ١٢١٤/٢٥ ابريل ١٨٠٠، بعد ٣٧ يوماً من الجهاد وإغلاق أبواب القاهرة في وجه الفرنسيين الذين دكوها بالقنابل من القلاع المشرفة عليها.

ولما خرج السيد من مصر إلى الشام نُهب بيته كما نُهبت بيوت سائر الأمراء الذين آثروا الخروج على البقاء.

ثم لما رجع الجيش العثماني إلى مصر بمعونة الإنجليز لطرد الفرنسيين منها رجع معهم السيد عمر مكرم، واستقبلته القاهرة استقبالاً حافلاً، وصار رجل مصر وزعيمها الشعبي، وعادت إليه زعامة نقابة الأشراف.

عمر مكرم يُنَصِّب محمد علي حاكماً على مصر:

لما خرج الفرنسيون من مصر سنة ١٢١٥/١٨٠١ عاد أمراء المماليك إلى عادهم المذمومة في ظلم الناس واضطهادهم، وصاروا

بحيث يقاتل بعضهم بعضاً، وكان في مصر وال عثماني اسمه أحمد خورشيد باشا لكنه لم يستطع ضبط الأمور، وكاًن محمد علي رئيساً لجند الأرناؤوط "الألبان" وكان بين الأرناؤوط والمماليك نزاع، وبينهما وبين الوالي التركي وجيشه نـــزاع، وحدثت حوادث يطول ذكرها لكن العلماء وعلى رأسهم السيد عمر مكرم رأوا أن أفضل من يلي حكم مصر هو محمد علي لما رأوا من هدوئه وحسن ضبطه للأمور ودهائه وقوته، فاستقر رأي العلماء على تنصيب محمد علي حاكماً علي مصر، فدخل عليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي وعرضا عليه ما اتفقوا عليه فتردد محمد علي ثم وافق، فألبساه لباس الحاكم آنذاك، وبايعاه نيابة عن الشعب في سنة ١٢٢٠/١٨٠٥، وكانت هذه الحادثة فريدة في تاريخ مصر لم تتكرر قبل ذلك أو بعده فيما أعلم.

ولم يقبـــل الوالي أحمد خورشيد هذا الذي جرى لكنه أُجبر عليه إجباراً بعد حوادث يطول ذكرها، وتصدر السيد عمر في هذه الحوادث كلها، ومما يظهر عمق فهم السيد عمر وثقته بما صنع ما جرى بينه وبين رسول الوالي التركي أحمد خورشيد الذي أرسله ليناقش السيد عمر فيما صنعه فقال له الرسول:

ــ كيف تثورون على مَن ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ .

ــ فقال له السيد: اعلم أن أولي الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا الحاكم الذي أرسلكم ما هو إلا رجل ظالم ... وقد كان لأهل مصر دائماً الحق في أن يعزلوا الوالي إذا

أساء و لم يرض الناس عنه ... إن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار في الناس سيرة الجور والظلم كان لهم خلعه وعزله.

ــ فقال الرسول: وكيف يجوز لكم حصارنا ومعاملتنا معاملة الخوارج الكفرة؟

ــ فقال السيد عمر: إننا نقاتلكم لأنكم عصاة قد خرجتم على الحق ...

ومن هذه المناقشة يتبين عظم مكانة السيد عمر وطاعة الناس له ولجوئهم إليه.

ثم حدثت حوادث عديدة كادت تودي بمحمد علي في بدايات حكمه لكن السيد عمر مكرم استطاع أن يتجاوز عواقبها بسلام، واستطاع تثبيت حكم محمد علي ٍلمصر خاصة بعد أن عزلت الدولة العثمانية محمد علي ٍبعد سنة تقريباً من ولايته وطلبت منه أن يتولى ولاية سلانيك عوضاً عنها لكن السيد عمر استطاع أن يجمع العلماء والكبراء وكتبوا كتاباً للسلطان العثماني يخبرونه بأنهم لا يرضون لحكم مصر إلا محمد علي باشا، ورضخ السلطان لطلبهم بعد حوادث عديدة، وثبت محمد علي حاكماً لمصر.

ولما تولى محمد علي حكم مصر بمساعدة السيد عمر مكرم عظم شأنه، وقال الجبرتي في شأن علوّ مقدار السيد عمر مكرم أوائل زمن محمد علي باشا:

"وارتفع شأن السيد عمر، وزاد أمره بمباشرة الوقائع (أي الحروب) وولاية محمد علي باشا، وصار بيده الحل والعقد، والأمر والنهي، والمرجع في الأمور الكلية والجزئية".

السيد عمر مكرم والحملة الانجليزية على مصر "حملة فريزر":

نزل الانجليز على الشاطئ المصري سنة ١٢٢٢/١٨٠٧، واحتلوا الاسكندرية، وتحركوا شرقاً لاحتلال بلدة رشيد لأنهم كانوا يريدون سلوك الطريق نفسه الذي سلكته الحملة الفرنسية قبل نـــزولهم بتسع سنوات تقريباً لكن حامية رشيد والأهالي فيها قاوموا أروع المقاومة ووقفوا سداً منيعاً أمام دخول الانجليز بلدهم، وأرسلوا استغاثات للقاهرة لنجدهم.

ولما رأى عمر مكرم ذلك عمل شيئاً فريداً رائعاً عبر عنه المؤرخ المصري الجبرتي بقوله:

"نبّه السيد عمر النقيب على الناس وأمرهم بحمل السلاح والتأهب لجهاد الانكليز، حتى مجاوري الأزهر أمرهم بترك حضور الدروس، وكذلك أمر المشايخ بترك إلقاء الدروس".

وعلق المؤرخ المصري الرافعي على ذلك بقوله:

"فتأمل دعوة الجهاد التي بثها السيد عمر مكرمٍ والروح التي نفخها في طبقات الشعب فإنك لترى هذا الموقف مماثلاً لموقفه عندما دعا الشعب إلى التطوع لقتال الفرنسيين قبل معركة الأهرام، ثم تأمل دعوته الأزهريين إلى المشاركة في القتال تجد أنه لا ينظر إليهم كرجال علم ودين فحسب بل رجال جهاد وقتال ودفاع عن الزمـــان، **فعملهم في ذلك العصر كان أعم وأعظم من عملهم اليوم**" وصدق الرافعي والله.

بدايات الجفوة بين السيد عمر مكرم ومحمد علي باشا:

وكان محمد علي غائباً في الصعيد فلما عاد استأذنه السيد عمر في الجهاد هو ومن معه فرفض، وأخبره بأن الواجب قد سقط عنهم وأن هذه مسؤولية الجيش وأن مسؤولية الشعب هي إعداد الأعلاف للدواب التي ستخرج إلى رشيد!! فوجم السيد عمر من هذه الكلمة غير اللائقة، وحملها بغم وهم وعاد أدراجه وهو ضيق الصدر.

ثم فترت العلاقة بين السيد عمر مكرم ومحمد علي باشا، وساعد على فتورها أكثر أن محمد علي أخذ من المصريين الضرائب الفادحة، وأنزل فيهم من المظالم شيئاً كثيراً، فغضب عليه السيد ورأى أنه قد أخَلّ بالشرط الذي أُخذ عليه يوم توليته الحكم وهو: "أن يسير بالعدل، ويقيم الأحكام والشرائع، ويقلع عن المظالم، وألا يفعل أمراً إلا بمشورة العلماء، وأنه متى خالف الشروط عزلوه"، وبسبب هذا فترت العلاقة بينهما أكثر من ذي قبل فلم يَعُد السيد عمر يتردد على محمد علي باشا كما كان يصنع قبل ذلك.

نفي السيد عمر مكرم:

ثم صار السيد عمر مكرم يجاهر بمعارضة محمد علي باشا بين الناس، وأبدى السخط والتذمر من تصرفات محمد علي باشا، واستمرت الجفوة بينهما عامين طويلين حتى حدثت حادثتان ضخمتا الخلاف وصعدتا به إلى درجات خطيرة، وأولاهما أن محمد علي باشا كُلف من قِبل الدولة العثمانية بحرب الوهابيين -كما كانوا يسموهم- في نجد فاقتضى هذا منه أن يجمع المال الكثير من الشعب،

وثانيهما أن أحد المشايخ سُجن ظلماً فرأى خواص المشايخ والكبراء وفي مقدمتهم السيد عمر مكرم أن في هذا مساساً بالاتفاق مع محمد علي باشا وقت تنصيبه والياً على مصر بأن يسير بالعدل، وأن في هذا خلافاً للوثيقة التي وُقعت في بيت الأمير إبراهيم قبل الحملة الفرنسية على مصر ومجيء محمد علي حاكماً بمدة ونصت على السير في الناس بالعدل، فاجتمعوا في الأزهر يتذاكرون في السبل الكفيلة بردع محمد علي والعامة حولهم يصيحون ويهمون بالثورة، وخلص الأمر إلى كتابة وثيقة تُضمن الشكاوى من محمد علي وترسل إلى رئيس الديوان ليسلمها إليه، فراع ذلك الاجتماع محمد علي، وعلم برئاسة عمر مكرم له فزاده ذلك تغيظاً عليه، وطلب من المشايخ الموقعين على الوثيقة الحضور عنده للمناقشة فذهبوا إلا السيد عمر رفض أن يذهب إليه، ولما ذهب المشايخ صار بعضهم يطعن في السيد عمر مكرم - للأسف- وقال عنه بعضهم: "ما هو إلا صاحب حرفة أو جابي وقف يجمع الإيراد ويصرفه على المستحقين، وليس له قدر إلا بمؤازرتنا، فإذا نحن تخلينا عنه لم يكن له بعد انصرافنا قدر ولا خطر" وهكذا يفعل الحسد والتنازع، وبهذا الموقف الذي استغله محمد علي ضُرب أول إسْفين "مِعْول" بين المشايخ وتراجع قدرهم بعد ذلك فلم يستطيعوا استعادة هيبتهم إلى يوم الناس هذا، واستطاع محمد علي أن يقلم أظافرهم جميعاً بعد خذلانهم السيد عمر مكرم، ونقض اتفاقهم معه الذي كان في الأزهر، كما ذكرت آنفاً.

وتشدد الشيخ عمر في موقفه بعد ذلك وصار يجهر بعدائه لمحمد علي ويقول:

"كما أصعدته للحكم فإني قدير على إنـــزاله منه"!!

والتمس محمد علي رضا السيد عمر بكل طريقة حتى أنه حاول أن يهديه الأموال الكثيرة ورجاه أن يعدل عن طريقته لكن السيد عمر مكرم يرفض أن يتنازل عن موقفه إلا بعد أن يعلن محمد علي عن توقفه عن جباية الضرائب بحسب إرادته ومشيئته دون الرجوع إلى زعماء الشعب.

وبينما الأمر على ذلك حدثت حادثة كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، وهي أن محمد علي أعدّ "كشف حساب" ليرسله إلى الدولة العثمانية ليبين لها أنه صرف الأموال التي جباها من الشعب بناء على أوامر قديمة منها منذ أن كان الصدر الأعظم -رئيس وزراء الدولة العثمانية- يوسف باشا في مصر زمن خروج الفرنسيين منها، وطلب من المشايخ التوقيع على كشف الحساب فقبلوا ورفض السيد عمر مكرم وبرر رفضه بأن الضرائب المعتادة كانت كافية لكل ما قام به محمد علي من الأعمال العامة وأنه لا يستطيع أن يشهد إلا بالحق الذي يعتقده وهو أن الضرائب التي فرضها محمد علي زائدةً على ما كان من قبل لا داعي لها، فغضب محمد علي وطلب اجتماع المشايخ فحضروا إلا السيد عمر وهناك أعلن خلعه من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط، وكان ذلك سنة ١٢٢٤/١٨٠٩، فامتثل للأمر، وللأسف فإن جماعة من العلماء قاموا بكتابة محضر إلى الدولة العثمانية يدافعون عن نفي محمد علي باشا السيد عمر مكرم واتهموه باتهامات غير صحيحة، لكنهم بعد نفيه ذاقوا وبال صنيعهم، وصدق قول الجبرتي

فيهم وفي السيد عمر :"كان ظلاً ظليلاً عليهم وعلى أهل البلد يدافع عنهم، ولم يزالوا بعده في انحطاط".

وقضى السيد عمر مكرم قرابة ثلاث سنوات في دمياط بنى فيها نــزلاً لنــزول التجار الذين كانوا يقصدون ميناءها من سائر البلدان، ثم تحول إلى طنطا فبقي فيها خمس سنوات تقريباً، إلى أن عفا عنه محمد علي وأعاده إلى القاهرة بعد أن طلب السيد عمر منه أن يحج، ثم أرسل له محمد علي خطاباً لطيفاً قال له فيه:

"إلى مطهر الشمائل سَنِيِّها، حميدَ الشؤون وسميّها، سلالة بيت المجد الأكرم والدنا السيد عمر مَكرم دام شأنه أما بعد:

قد بلغنا نجلكم عن طلبكم الإذن في الحج إلى البيت الحرام وزيارة روضته عليه الصلاة والسلام للرغبة في ذلك، والترجي لما هنالك، وقد أذنّا لكم في هذا المرام؛ تقرباً لذي الجلال والإكرام، ورجاء لدعواتكم بتلك المشاعر العظام، فلا تَدَعوا الابتهال، ولا الدعاء لنا بالقال والحال، كما هو الظن في الطاهرين والمأمول من الأصفياء المقبولين ..." وعاد السيد عمر إلى القاهرة التي ارتجت فرحاً بمقدمه، وخرج عامة الشعب إلى بولاق لتحيته، بعد تسع سنوات من نفيه.

نفي السيد عمر مرة أخرى !!:

وبعد ثلاث سنوات من عودة السيد عمر من المنفى حدثت حادثة استدعت إعادة نفيه وهي أن الدولة العثمانية طلبت من محمد

علي تموين بعض سفنها التي تحارب اليونانيين في جزيرة كريت وذلك سنة ١٨٢٢/١٢٣٧ فاضطر محمد علي لفرض ضرائب على الشعب الذي هاج وماج، وهتف باسم السيد عمر مكرم الذي لم يكن قادراً على الاستجابة لطلبهم لكبر سنه وضعف قوته، لكن محمد علي خاف من تجدد الفتن فبادر بنفيه إلى طنطا لكنه لم يبق في منفاه طويلاً إذ توفي في السنة نفسها عن ثلاث وسبعين سنة، ودفن في قرافة القاهرة رحمه الله تعالى وغفر له.

وبتنحية السيد عمر مكرم تنتهي مرحلة من أهم مراحل مصر الحديثة، ويُجهض عمل من أهم الأعمال التي مَرّت على ديار العرب في القرنين الأخيرين، ألا وهو مشاركة العلماء الحكام في إدارة شأن العامة وتوجيههم، ومشاركة العلماء في اختيار الحكام ليكونوا معهم أولياء الأمور، ولا أعلم أنه قام في ديار العرب في العصر الحديث عمل مشابه لما كان في مصر، ولو قُدر لتلك المشاركة أن تمضي إلى نهايتها لتغير تاريخ العرب والمسلمين بل العالم كله، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ـــ وقد تمنيت أن يلاين السيد عمر مكرم محمد علي قليلاً، وأن يداريه شيئاً من المداراة حتى يحصل منه على أكبر قدر ممكن من المكاسب للبلد والشعب؛ فإن الصدام بينهما لم يكن من المصلحة أبداً لكن هكذا جرى الأمر، والحمد لله على كل حال.

وفي النهاية لابد من القول بأن العلماء اعتادوا أن يصفوا بعض المتأخرين بأنهم خاتمة الحفاظ أو خاتمة المحدثين أو غير ذلك من الألقاب، وأستطيع أن أقول إن السيد عمر مكرم كان خاتمة العلماء

المجاهدين، فإني لم أر في التاريخ المصري الحديث بل التاريخ العربي الحديث عالماً بوزن السيد عمر مكرم ومشاركته في الجهاد وتوجيه العامة مع الهيبة والمقام العالي بين سائر الناس، حكاماً ومحكومين، وقد كان خاتمة لعلماء مصريين هم كالشامة بين الناس، وكلهم كانوا مجاهدين عاملين، أذكر منهم المشايخ سليمان المنصوري، ومحمد بن سالم الحفناوي، وعلي بن موسى الحسيني المقدسي المصري، وعُرف بابن النقيب، وعلي الصعيدي، والشيخ الدردير، والشيخ العروسي، وخاتمتهم السيد عمر مكرم رحمه الله تعالى.

ولولا أن شرطي في هذه السلسلة ألا أترجم لأحد من العلماء إلا من العصر الحديث لكنت قد ترجمت لأولئك الأكابر رحمهم الله تعالى ورضي عنهم.

وأختم بما قاله المؤرخ المصري عبدالرحمن الرافعي في السيد عمر مكرم فإنه معبر عن حاله أحسن التعبير:

"كان للشعب زعماء عديدون يجتمعون ويتشاورون ويشتركون في تدبير الأمور، ولكلٍ منهم نصيبه ومنـــزلته، ولكن من الإنصاف أن يُعرف للسيد عمر مكرم فضله في هذه الحركة؛ فقد كان بلا جدال روحها وعمادها".

٥- العالم المثابر
عبدالرحمن الإفريقي
١٣٢٦ – ١٣٧٧

١٩٠٨ – ١٩٥٧

هناك أشخاص عظماء كثر في إفريقيا السوداء عاشوا في القرن الماضي، لكن عظمتهم وموهبتهم وقدراتهم كلها دفنت تحت تأثير الاحتلال الذي كان فرنسياً في الأغلب ، وبعض هؤلاء العظماء أتيح للناس أن يعرفهم، وقد كانوا قسمين: قسماً جاهد الاحتلال فذاع اسمه وشاع عمله مثل ساموري توري ومحمد عبدالله حسن وعمر الفوتي، وكل هؤلاء ذكرتهم من قبل.

وقسماً آخر خرج من دياره متجهاً إلى الحرمين غالباً، وكان منهم آل الأنصاري من مالي، وبعضٌ من الفلاته، وكان من هذا القسم العَلَم الذي أترجم له في هذه الحلقة وهو الشيخ عبدالرحمن بن يوسف الإفريقي، وهو من مالي.

ولد سنة ١٣٢٦/١٩٠٨ في قرية "ففا" من مالي، التي كانت قد ابتليت بالاحتلال الفرنسي الذي امتص ثروتها وحطم قوتها، ونشأ كما ينشأ الصبيان آنذاك فدرس في كُتّاب القرية، ولما بلغ الثانية عشرة من عمره مَرّ بالكُتّاب مفتش فرنسي فحاوره الطلاب واطلع على كراريسهم فوجد من عبدالرحمن نباهة وفهماً ومعرفة بالواقع حوله تفوق ما يمكن أن يحصله صبي في سنه، فأعجب به وطلب من والده أن يسمح بتحويله إلى إحدى المدارس العصرية التي تدرس على الطريقة الفرنسية، ففعل الوالد، وهذا يقتضي الخروج من القرية إلى بلدة أكبر، وهكذا كان وخرجت القرية لتودعه، وسط دموع الحزن ولوعة الفراق، والعجيب أن والده قال له وهو يودعه: أوصيك بتقوى الله والحفاظ على دينك في تلك المدرسة التي لم تنشأ إلا للقضاء على عقيدتك الإسلامية، ووجه العجب أن الوالد فاهم لمراد أولئك لكنه

استجاب لنداء العاطفة في داخله، ويبدو أنه رجح بين المصالح والمفاسد فاختبار ذهاب ابنه، والله أعلم.

قضى الفتى ثمان سنوات في المعهد التنصيري الصارم، وكان من الأوائل حتى نال الشهادة الثانوية ثم لما تخرج عين معيداً في المدرسة نفسها معلماً للغة الفرنسية وبقي فيها ثلاث سنوات، لكن كل تلك السنوات لم تنل من عقيدة الفتى، ولم تستطع أن تنــزع الإسلام من نفسه فبقي على فطرة نقية، هذا من عناية الله تعالى به؛ إذ كم من مسلم ضاع وماع في تلك المدارس الخطيرة.

ثم تقدم لوظيفة في مصلحة الأرصاد الجوية في العاصمة باماكو فكان أول المقبولين، ثم بعد أشهر قلائل ترقى إلى وظيفة سكرتير المصلحة ولقد كانت كلمة والده "إنهم يريدون القضاء على عقيدتك الإسلامية" ترن في أذنه في المعهد والوظيفة حيث رأى حملات تشويه الإسلام تشتد في كل مكان كان فيه، إضافة إلى تعظيم أوروبا وأهلها وتحقير الإفريقيين، ودينهم وتاريخهم.

ولم يكن عبدالرحمن مقتنعاً بصحة أقوال المنصرين لكنه لم يكن قد حاز من العلم آنذاك ما يمكنه من الرد عليهم رداً مُفْحماً.

ولما مضى عليه عامان في الوظيفة استدعاه رئيسه الفرنسي ليشكره على ضبط العمل وحسن الإدارة ثم فاجأه بالقول:

ـــ يؤسفني يا عبدالرحمن أن يظل مثلك متشبثاً بتقاليد المتخلفين.

ـــ لو أوضحت ما تريد.

ــ ألاترى أنك تلتـــزم بالإسلام أكثر مما هو ضروري!! إن الملونين من زملائك يكتفون بالانتساب لهذا الدين، أما أنت فلا ترضى إلا أن تربط تصرفاتك بقيوده الثقيلة الجامدة.

ــ الإسلام دين رباني سمح لا يقيد المؤمن به إلا عن المفاسد، ثم يطلق مواهبه في ميادين الخير والعمل الصالح إلى أقصى حدود الإمكان.

ــ هذا دفاع عاطفي لكنه لا يستطيع تغيير الحقيقة؛ وهي أن الإسلام دين المتخلفين، بقدر ما يعلم الناس أن النصرانية دين المتقدمين والمتفوقين!!

ــ ولم لا يكون كلام الرئيس هو العاطفي، لقد درست الكثير من تعاليم النصرانية ووقفت على أصولها فلم أجد فيها ما يخاطب العقل بل هي مجرد استسلام لأقوال رجال يمثلون سلطة الكنيسة.

ــ نعم نعم وهذا سر تفوقها!! لأن هذه الأقوال لا تحمل طابع الإلزام، فأنت تستطيع أن تكون نصرانياً دون أن تدخل الكنيسة أو تتقيد بسلوك معين.

ــ لكن هذه ليست ميزة يا حضرة الرئيس؛ إنها تأكيد على أن النصرانية ليست وحياً إلهياً بل هي مجرد اجتهادات شخصية يقوم بتحضيرها طائفة من ذوي الاختصاص كأي شأن بشري آخر.

ــ حسناً أليس الاجتهاد المتطور أَبْعَثَ على التقدم من الجمود على أحكام لا تسمح للإنسان بالتحرك إلى أبعد من حدودها المغلقة.

أجل يا سكرتيري العزيز: إن الإسلام محاولة صارمة لتجميد الحياة فأين هو من نصرانيتنا التي لا تعرف الحدود ولا تسمح بالجمود.

ثم أنهى الفرنسي المقابلة تاركاً عبدالرحمن الإفريقي مليئاً بالانفعالات والأفكار.

وهذه المناظرة دالة بوضوح أن أقطاب الاحتلال كانوا يتخذون من النصرانية مادة يتكئون عليها في إخراج المسلمين من دينهم حتى لو كان أولئك قد كفروا بالنصرانية منذ زمن بعيد أو على الأقل نَحّوها جانباً بعيداً عن الحياة، بمعنى أن النصرانية عند أولئك صارت حمية وتُكَأة وقنطرة لمصالح الغرب ومطامعه.

ثم جاء وقت الحج فشق عبدالرحمن الإفريقي طريقه إلى مكة في قافلة عبر السودان، وهي رحلة شاقة وصل بعدها إلى مكة سنة ١٣٤٥/١٩٢٦ وكان في نيته أن يحج ويعود لكن دروس المسجد الحرام والمسجد النبوي أغرته بالبقاء حتى يتفقه ويزداد علماً.

ـــ وأقبل على العربية يغترف من مَعِينها، ثم لزم أحد فقهاء المالكية في المسجد النبوي حتى فقه في مذهب مالك، وبعد أربع سنوات قرر أن يعود إلى بلاده، وذهب إلى جدة ليركب البحر، وفي أحد الفنادق اجتمع بأحد أهل العلم الذي حثه على البقاء لطلب مزيد من العلم والتضلع من عقيدة السلف الصالح فعاد الشيخ عبدالرحمن إلى المدينة النبوية المنورة ولزم شيخه سعيد بن صديق -وهو إفريقي أيضاً- ولم يكن له أولاد فصار الشيخ عبدالرحمن مثل ولده.

أقبل على دراسة الحديث النبوي الشريف، والتحق بدار الحديث طالباً ودرس في الحرم النبوي الشريف، ثم صار مدرساً في دار

الحديث سنة ١٣٥٠/١٩٣١، وهي التي أنشأها الشيخ أحمد بن محمد الدهلوي.

من المواقف التي حصلت له:

كان يدرس في حلقة الشيخ ألفا هاشم، وهو أحد المشايخ الأفارقة الذين كان لهم أثر في المدينة النبوية المنورة، فوصلت للشيخ رسالة باللغة الفرنسية فأسف الشيخ أنه لم يجد من يترجمها له، فلما انفضت الحلقة قال الشيخ عبدالرحمن لشيخه: هل يسوغ لمسلم أن يستعمل لغة أعداء الإسلام في حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

فضحك الشيخ وقال له : أنسيت يا عبدالرحمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إلى بعض صحابته بتعلم لسان يهود؟

وعندئذ طلب عبدالرحمن من شيخه أن يترجم له الرسالة، فانتشر خبر إجادته للفرنسية حتى أنه طُلب في وظيفة مترجم لكنه اعتذر لأنه يريد التفرغ للعلم.

ومن المواقف أيضاً أن أحد الطلاب استهزأ أمامه بأحد المشايخ وقال: ومن يكون هذا الرجل وما هي منــــزلته؟

فغضب الشيخ وقال له :

هو ممن أمرك الله بالدعاء والاستغفار له في قوله : "والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا" والله يقول: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات" ثم وعظه بأمثال هذا الوعظ.

ـــ ومما حصل له مما يدل على سماحة نفسه أن أحد أعدائه شج رأس ابن له انتقاماً منه فسُجن هذا الجاني وكان فقيراً، فشفع الشيخ فيه فلم تُقبل شفاعته، فأنفق الشيخ على عائلة الجاني حتى خرج من سجنه، فلما عرف ذلك ثاب إلى نفسه وعاد إلى الحق.

همته:

لاشك أن الشيخ ذو همة عالية دعته لترك المنصب في مالي، وترك الأهل والوطن والتغرب من أجل طلَب العلم، وقَلّ من الناس من يقدر على هذا، بل إنه لم يعد لوطنه أبداً بعد مفارقته إياه.

وكان محتاجاً إلى المال أيام الدراسة في المدينة النبوية المنورة فتارة كان يحمل الماء بأجرة، وتارة كان يؤجر نفسه في بعض المخابز، وتارة يساعد الخياط، وهو مع كل ذلك مكب على طلب العلم بنشاط وهمة حتى صار أستاذاً في دار الحديث التي درس فيها سنة ١٩٤٥/١٣٦٤، وصار مدرساً في الحرم النبوي الشريف سنة ١٩٤١/١٣٦٠، وعاش حتى صارت الاستفتاءات ترد إليه من أنحاء العالم الإسلامي.

ثم صار مدرساً في المعهد العلمي في الرياض ثم مدرساً في كلية الشريعة فيها ١٩٥١/١٣٧٠.

ثم اختاره الملك عبدالعزيز -رحمه الله- ليكون داعية في ينبع فنفع الله به.

وكان ذا همة في التدريس يمكث فيه الساعات الطوال بدون ملل ولا كلل.

ـــ ومن همته العالية إنفاقه الدائم بعد أن فتح الله عليه ورزقه، فكان يعطي الفقراء فإذا قيل له: دع بعضاً من مالك لأهلك قال: إني تارك لهم خيراً من ذلك: الله جل جلاله.

ـــ ومن حسن أخلاقه ما حكاه تلميذه الشيخ عمر بن محمد فلاته -رحمهما الله تعالى- فقال: ولا أحصي عدد ما سمعته رحمة الله علينا وعليه يدعو إلى الاعتدال والإنصاف.

مؤلفاته :

له عدة كتب منها: "الأنوار الرحمانية لهداية الفرقة التيجانية".

و"توضيح الحج والعمرة".

و"جواب الإفريقي" رسالة فيها إجابات على أسئلة وردته من مليبار سنة ١٣٦٦/١٩٤٧.

ـــ توفي رحمه الله تعالى سنة ١٣٧٧/١٩٥٧.

٦- شيخ الأزهر التونسي
محمد الخضر حسين
١٢٩٣ – ١٣٧٧
١٨٧٦ – ١٩٥٨

قد ولي الأزهر في العصر الحديث شيوخ كثيرون كانوا ملء السمع والبصر لكن قليلاً منهم كان مثل الشيخ محمد الخضر حسين علماً وعملاً وحرصاً على المسلمين، هذا ولم يَلِ الأزهر غير مصري في العصر الحديث إلا الشيخ محمد الخضر حسين فيما أعلم.

وقد عاش الرجل في مدة مليئة بالأحداث منذ بدايات القرن الرابع عشر الهجري/العشرين الميلادي.

ولد -رحمه الله تعالى- في مدينة نَفْطة بتونس في ٢٦ رجب سنة ١٢٩٣/١٦ أغسطس ١٨٧٦، وأصل أسرته من الجزائر، من عائلة العمري، من قرية طولقة، وهي واحة من واحات الجنوب الجزائري، وأصل أمه من وادي سوف بالجزائر أيضاً وأبوها هو الشيخ المشهور مصطفى بن عزوز وخاله الشيخ المشهور محمد المكي بن عزوز.

واسم الشيخ هو محمد الأخضر بن الحسين بن علي بن عمر، فلما جاء إلى الشرق حذف "ابن" من اسمه على الطريقة المشرقية، وغلب عليه الخضر عوضاً عن الأخضر.

ونشأ الشيخ في أسرة علم وأدب من جهتي الأب والأم، وكانت بلدة نَفْطة التي ولد فيها موطن العلم والعلماء حتى أنها كانت تلقب بالكوفة الصغرى، وبها جوامع ومساجد كثيرة، وهي واحة بها زرع وفيها فلاحون.

ونشأ الشيخ في هذه البيئة طالباً للعلم فحفظ القرآن، ودرس العلوم الدينية واللغوية على يد عدد من العلماء منهم خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز الذي كان يرعاه ويهتم به، وحاول الشيخ منذ سن الثانية عشرة أن يقرض الشعر، ثم برع فيه بعد ذلك.

ولما بلغ الشيخ سن الثالثة عشرة انتقل إلى تونس مع أسرته ودرس في جامع الزيتونة -فك الله أسره وأعاد مجده- وهناك درس على خاله محمد المكي بن عزوز الذي كان له شهرة كبيرة بالجامع ويدرس فيه مجاناً، ودرس على يد مشايخ آخرين أبرزهم الشيخ سالم بوحاجب الذي كان من أعمدة الإصلاح في تونس، درس على يديه صحيح البخاري، وقد تخرج الشيخ في الزيتونة سنة ١٣١٦/١٨٩٨، وألقى دروساً في الجامع في فنون مختلفة متطوعاً، وبقي كذلك مع حضور مجالس العلم والأدب المختلفة.

وفي شهر محرم سنة ١٣٢٢/ إبريل ١٩٠٤ أنشأ مجلة "السعادة العظمى" وهي أول مجلة عربية ظهرت في تونس، وكانت تصدر كل نصف شهر، ولم يصدر منها سوى ٢١ عدداً ثم انقطع صدورها، وقد كان الشيخ يكتب أغلب مقالاتها.

وقد وُوجهت بنقد من قبل بعض الجامدين لأن الشيخ أيد فيها بقاء باب الاجتهاد مفتوحاً، وكانت المجلة تتسم بالنقد الهادف واحترام التفكير الجيد.

رحلتاه إلى الجزائر:

ــ وفي سنة ١٣٢١/١٩٠٣ ارتحل إلى الجزائر، وفي السنة التي تليها ارتحل إليها أيضاً، وزار معظم المدن الجزائرية، وقصد العاصمة

الجزائر فزار المساجد والمكتبات، وحضر بعض الدروس الدينية واللغوية، كما شارك في بعض المجالس الأدبية وألقى بعض الدروس الشرعية.

مناصبه في تونس:

١. توليه منصب القضاء:

تولى منصب القضاء في بلدة بنـــزرت، ولم يكن يريده لكن الشيخ الإمام العلامة محمد الطاهر بن عاشور أقنعه بالقبول واشتد عليه فيه، لكنه بقي أشهراً قليلة ثم استقال، وعاد إلى تونس ليعاود التدريس في الزيتونة، وكان أثناء بقائه في بنـــزرت مباشراً الخطابة والتدريس في جامعها الكبير، وكان له فيها دروس شرعية وأدبية.

٢. عضوية الجمعية الزيتونية:

كان عضواً في الجمعية الزيتونية التي يرأسها الإمام العلامة محمد الطاهر بن عاشور، وهي خاصة بمشايخ جامع الزيتونة، فك الله أسره وأعاد مجده.

٣. التدريس في جامع الزيتونة والقيام على خزانة كتبه.

٤. التدريس بمدرسة الصادقية، وكانت الثانوية الوحيدة في تونس.

ـــ رحلته إلى بلاد الشام:

للشيخ ثلاثة إخوة أدباء فضلاء تركوا تونس واستقروا في الشام، وكان منهم زين العابدين أخوه العالم الذي كان يلقي الدروس في الجامع الأموي فأراد الشيخ زيارتهم، فغادر الشيخ تونس إلى الشام

سنة ١٣٣٠/١٩١٢ عن طريق البحر، ومر بمالطة والاسكندرية ثم القاهرة وألقى درساً في الأزهر، ثم ترك القاهرة إلى بورسعيد فيافا وحيفا، وفي كل مدينة من المدن كان يزور الأدباء والعلماء ويطلع على الكتب.

ثم دخل الشام فاستقبل استقبالاً حافلاً، وألقى دروساً في الجامع الأمويّ في الحديث، واتصل بالعلماء والأدباء، وبقي شهراً ونصفاً فيها ثم غادرها إلى بيروت في شوال سنة ١٣٣٠/١٩١٢، ثم غادرها إلى اسطنبول ليزور خاله الشهير محمد المكي بن عزوز الذي اتخذها موطناً له، ولم يلقه منذ خمس عشرة سنة، وبقي فيها شهرين ثم غادرها إلى تونس.

انتقاله إلى الشام:

بقي في تونس أسابيع قليلة ثم خرج منها -إلى غير رجعة- لما ضيق الاستخراب الفرنسي عليه تاركاً زوجه التي رفض أهلها أن يأخذها معه، وكان ذلك في سنة ١٣٣١/ ديسمبر ١٩١٢، فوصل دمشق ثم غادرها إلى الحجاز بالسكة الحديد للحج، وزار ألبانيا ودار في البلقان، ثم ذهب إلى الأستانة -اسطنبول- ثم وصل دمشق واستقر فيها بحي الميدان ببيت إخوته الذين سبقوه إلى هنالك.

ودرّس في دمشق بالمدرسة السلطانية، واستمر كذلك حتى سجنه جمال باشا السفّاح والي الشام العثماني سنة ١٣٣٥/١٩١٦ متهماً إياه بالتآمر على السلطة الحاكمة، وبقي في السجن ستة أشهر -وقيل أكثر من ذلك- فلما خرج منه عاد إلى التدريس بالمدرسة السلطانية والجامع الأموي.

ثم طلبته وزارة الحربية العثمانية -أثناء الحرب العالمية الأولى- للعمل فيها مُنشئاً للرسائل العربية فغادر دمشق إلى اسطنبول، ومن هنالك أرسلته الدولة العثمانية إلى ألمانيا مع مجموعة من المشايخ في مهمة سياسية تتمثل في تحريض المغاربة هنالك ضد الوجود الفرنسي في شمال افريقيا وضد الإيطاليين في ليبيا، فبقي ٩ أشهر تعلم فيها اللغة الألمانية واطّلع على عادات المجتمع الألماني، ثم عاد إلى اسطنبول فبقي فيها قليلاً، ثم عاد إلى برلين ليقيم فيها سبعة أشهر أخرى إلى أن انتهت الحرب العالمية الأولى وسقطت اسطنبول بأيدي الحلفاء.

وقد شارك أثناء إقامته في ألمانيا بكتابة تقرير مفصل عن مطالب الشعب الجزائري والتونسي وقد رُفع هذا التقرير إلى مؤتمر الصلح المنعقد في فرنسا.

وحضر سنة ١٣٣٦/١٩١٧ فتح مسجد للجنود المسلمين في برلين، وألقى فيه محاضرة عن الحرية.

ـــ ولم يأكل أثناء إقامته في ألمانيا اللحم لأن الألمان لا يذبحون بالطريقة الشرعية وإنما يضربون الحيوان على رأسه حتى يموت أو يخنقونه.

وقد أُعجب بحب الألمان العمل وإقبالهم عليه حتى عَجَزتُهم.

عودته إلى دمشق:

لما سقطت اسطنبول بأيدي الحلفاء عاد من هامبورج بألمانيا إلى اسطنبول بباخرة أقلّته ومن معه من العثمانيين، ومنها عاد إلى دمشق التي كانت قد خضعت للحكم العربي -بعد زوال العثمانيين- بقيادة فيصل بن الشريف حسين.

وفي دمشق انضم إلى المجمع العلمي العربي عضواً عاملاً، ثم لما استقر بمصر بقي عضواً مراسلاً.

انتقاله إلى مصر واستقراره فيها:

لما سقطت الشام في أيدي الفرنسيين ١٣٣٩/١٩٢٠ ما وسعه المقام فيها؛ وذلك لأن الفرنسيين كانوا قد حكموا عليه غيابياً في تونس بالإعدام لاتهامه بالمشاركة في تحريض المغاربة بألمانيا وتركيا على الثورة ضد الفرنسيين في شمال افريقيا، فهرب إلى مصر، وبقي فيها إلى نهاية حياته المباركة.

وعمل في مصر مصححاً بدار الكتب المصرية بشفاعة أحمد تيمور باشا الذي عرف قدره، وكان يلقي المحاضرات والدروس في مساجدها، ويكتب المقالات المتنوعة الكثيرة.

وفي القاهرة أنشأ "جمعية تعاون جاليات افريقيا الشمالية" التي تهتم بالمغاربة من الناحيتين الثقافية والاجتماعية؛ وذلك سنة ١٣٤٢/١٩٢٤، وبعد عشرين سنة ألف جمعية "جبهة الدفاع عن افريقيا الشمالية".

وفي تلك المدة أسقط الهالك أتاتورك الخلافة الإسلامية، ومن ثم تطلع الناس إلى بلد آخر ليكون مهداً للخلافة فاتجهت الأنظار إلى مصر، وآنذاك كتب الشيخ علي عبدالرازق كتابه المشؤوم "الإسلام وأصول الحكم" أنكر فيه أن يكون للإسلام سلطة ودولة إنما هو سلطة روحية فقط، فقامت عليه قيامة العلماء والمفكرين بمصر، وفصل من هيئة كبار العلماء في محرم سنة ١٣٤٤/١٩٢٥ واتهم بالزندقة

والإلحاد، وحينئذ ألف الشيخ محمد الخضر حسين كتابه الشهير الذائع الصيت "نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم" ونال به حظوة عند الملك فؤاد الذي -كان يطمع بالخلافة- وجَمْعٍ من العلماء والأدباء والمفكرين والمثقفين، وعظمت به شهرته، وطار به صيته، وقد أهدى الكتاب لخزانة الملك فؤاد.

ـــ وفي مصر اختلف مع طه حسين عندما ألف كتابه "في الشعر الجاهلي" وكان في الكتاب انحراف خطير واتباع لأقوال المستشرق الانجليزي مرجليوث وطعن في القرآن، فاشتد غضب علماء الأزهر حين صدر هذا الكتاب، وحاكموا صاحبه إلى محاكم مصر التي كانت تحت التأثير الانجليزي فبرأته، وهنا ألف الشيخ محمد الخضر كتابه "نقض كتاب في الشعر الجاهلي" الذي كان باعتراف طه حسين من أهم الردود عليه وأشدها حجة.

وفي سنة ١٩٢٨/١٣٤٦ شارك في تأسيس "جمعية الشبان المسلمين" ووضع لائحتها مع صديقه محب الدين الخطيب.

ـــ وفي مصر أنشأ "جمعية الهداية الإسلامية" مع بعض المشايخ منهم شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي، وذلك في سنة ١٩٢٨/١٣٤٦ لمّا رأى التفسخ الخلقي آخذاً في الانتشار بين كثير من شباب مصر آنذاك، وكان من أهداف الجمعية محاربة الفساد والإلحاد، والتعريف بالإسلام، والسعي لتمتين الصلات بين الشعوب الإسلامية والسعي لإصلاح شأن اللغة العربية وإحياء آدابها، وأصدر مجلة "الهداية الإسلامية" لتكون لسان حال الجمعية، وأُلقيت المحاضرات في المساجد

والنوادي خاصة التي تتبع هذه الجمعية، وقد رَأَس الجمعية الشيخ محمد الخضر حسين، وفيها بعض الأعضاء البارزين مثل الشيخ علي محفوظ، والشيخ عبدالوهاب النجار، وفتحت الجمعية فروعاً في مصر وسوريا والعراق.

وقد توقف صدور المجلة بعد ذلك أثناء الحرب العالمية الثانية.

مناصب الشيخ في مصر:

ــ التدريس في الأزهر:

اختير الشيخ محمد الخضر حسين للتدريس في قسم التخصص بالأزهر، وهذا دال على مدى علمه؛ إذ لا يدرس في الأزهر آنذاك إلا كبار العلماء.

ــ رئاسة تحرير مجلة الأزهر:

ــ اختير الشيخ محمد الخضر لتولي رئاسة تحرير مجلة الأزهر التي صدرت في بداياتها باسم "نور الإسلام" وذلك سنة ١٣٤٩/١٩٣١ ثم تحولت إلى مجلة الأزهر، وما زالت تصدر إلى يومنا هذا، وبقي الشيخ فيها إلى أن عزل عنها بعد أربع سنوات.

ــ وتولى رئاسة تحرير مجلة "لواء الإسلام" سنة ١٣٦٦/١٩٤٦.

وفي القاهرة اختير عضواً بـــ "مجمع اللغة العربية الملكي" عند إنشائه سنة ١٣٥١/١٩٣٢.

ـــ واختير عضواً لهيئة كبار العلماء سنة ١٣٧٠/١٩٥٠.

ـــ ثم اختير شيخاً للأزهر بعد ثورة يوليو في سنة ١٣٧١/١٩٥٢ وفي عهده أرسل وعاظاً أزهريين إلى السودان، ثم استقال منه بعد أقل من سنتين، وفي ولايته للأزهر دلالة على رفعة شأنه عند العلماء والساسة، فقد كان الأزهر أعظم مؤسسة إسلامية في العالم الإسلامي وقد قال الشيخ العلامة الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور التونسي عند اختيار الشيخ محمد الخضر شيخاً للأزهر: "ليحق لهذه الحقبة من التاريخ التي تُظِلُّنا أن تفخر بأنها بلغت فيها الصِلات بين الأزهر والزيتونة أوجها؛ فقد احتضن الأزهر إماماً من أئمة الأعلام، كان أحد شيوخ الزيتونة العظام".

وقد أحسنت مصر وفادته منذ نزل إليها سنة ١٣٣٩/١٩٢٠ وتجنس بجنسيتها وبقي فيها إلى وفاته، ودفن فيها.

علاقته بالسياسة:

كان للشيخ -رحمه الله تعالى- بعض الأفكار في باب السياسة وخاض في شيء منها فقد كان مهتماً بالاتحاد الإسلامي، حريصاً على تفقد أحوال المسلمين، متألماً مما نزل بهم، وكان -رحمه الله تعالى- حسن الصلة بوطنه تونس، حريصاً على تتبع أحواله، وإعانة أبنائه في كل الميادين، وكان بيته قبلة للتونسيين القادمين إلى القاهرة، وسخر مكانته العلمية والدينية من أجل مساعدة المدافعين عن قضية تونس خصوصاً والمغرب العربي الكبير عموماً فعرف بهم السلطات والهيئات والمسؤولين في مصر، وأنشأ جمعيتين لهذا الغرض كما ذكرت آنفاً.

وقد ذكرت من قبل أن الدولة العثمانية ابتعثته إلى ألمانيا في مهمة سياسية حكمت عليه فرنسا من أجلها بالإعدام.

لكن الشيخ لم يكن يحب الحديث في المجالات السياسية في مجلته "الهداية الإسلامية" ولا في مجلة "نور الإسلام" التي أصبحت الأزهر فيما بعد، حتى أنه قد جرت أحداث مهمة في تونس والمغرب في ذلك الوقت لكن الشيخ لم يكن يذكرها، ولعل مرد ذلك إلى تخوفه من الدخول في غمار شيء لا يدري ما عواقبه في مصر، وهذا السبب غير مقنع لي، والسبب الأقوى -عندي- هو أن الشيخ كان مهتماً بالإصلاح التربوي والاجتماعي والديني أكثر بكثير من اهتمامه بالسياسة التي أكد على البعد عنها في افتتاحية العدد الأول من مجلة "الهداية الإسلامية" ومجلة "نور الإسلام" في عددها الأول أيضاً، وهي التي أصبحت مجلة "الأزهر" فيما بعد، وهذا مما أثار عليه حفيظة الشيخ محمد رشيد رضا فجرى بينهما ما لا أحب ذكره، عفا الله عنهما وغفر لهما، وعلى كل حال فلا يعني عدم تعرضه للسياسة في المجلتين أنه بعيد في حياته العملية عنها بل قد كان بها ذا صلة كما بينت آنفاً لكنه آثر لسبب لا أدريه -على وجه القطع واليقين- أن يبتعد عنها في المجلتين، والله أعلم.

صفاته:

كان الشيخ -رحمه الله تعالى وإيانا- مؤثراً للهدوء في النقاش والحديث، عَفّ اللسان، جريء الجنان، محباً للإصلاح، عاملاً على جمع الكلمة، ومن أبرز صفاته الزهد فقد كان ظاهراً فيه طوال حياته،

وكان يردد كثيراً: "يكفيني كوب لبن وكسرة خبز وعلى الدنيا بعدها العَفاء".

وهو -بلا شك ولا ريب- صاحب همة عالية أهّلته للوصول إلى ما وصل إليه، رحمه الله وإيانا.

من مواقفه:

ـــ عندما كان في ألمانيا حضر عند مدير الاستخبارات الألمانية وكان معه سكرتيره، وذلك أثناء سفرهم إلى قرية ألمانية، وفي نهاية الحديث سأله المدير: أليس كذلك يقرر ابن خلدون؟

فقال له: وماذا يقرر؟

قال: إن العرب لا يصلحون لملك ولا يحسنون حكماً للأمم.

فقال له: إنما خص ذلك بعهد الجاهلية، وقرر أنهم في الإسلام أحسنوا السياسة وقاموا بأعباء الملك خير قيام، وقد بين ذلك غاية البيان في فصل عقده في مقدمته.

وهذا يدل على أن مدير الاستخبارات الألماني كان متابعاً لأحوال العرب، وأن الشيخ محمد الخضر كان قارئاً جيداً واعياً حاضر الذهن.

ـــ ومن مواقفه الجيدة أن السلطات الفرنسية الاستخرابية في تونس دعته ليكون عضواً في المحكمة المختلطة التي يكون فيها قضاة مسلمون وأجانب فرفض لأن المحكمة تحكم بغير ما أنزل الله، ولأن المحكمة قائمة في ظل الاحتلال وستخدم مصالحه.

ـــ ومن مواقفه الجريئة أنه حاضر في تونس عن الحرية في الإسلام أثناء وجود الاستخراب الفرنسي فيها، وذلك في نادي قدماء مدرسة الصادقية الثانوية، قال فيها:

"إن الأمة التي بُليت بأفراد متوحشة تجوس خلالها، أو حكومة جائرة تسوقها بسوط الاستبداد هي الأمة التي نصفها بصفة الاستعباد، وننفي عنها لقب الحرية" ثم بين الآثار السيئة للاستبداد في شجاعة وجرأة، وقد تناقل الناس مضمون المحاضرة ووصلت أخبارها إلى الشام وغيرها.

ـــ وفي مصر كان له موقف مشرف حين طلب أحد أعضاء مجلس الثورة مساواة الجنسين في الميراث، ولما علم الشيخ بذلك أنذرهم إن لم يتراجعوا عن هذا فسيلبس كفنه ويدعو الشعب إلى زلزلة الحكومة والقيام عليها لاعتدائها على حكم من أحكام الله، فكف ذلك العضو عما نواه من تغيير حكم الله تعالى، فما أحوجنا اليوم لمثله.

ـــ وقد استقال من الأزهر عندما حدثت الحادثة العظمى بضم القضاء الشرعي إلى القضاء الأهلي الذي اخترعه الاستخراب الانجليزي، وكان يرى -كما يرى كل مسلم- بوجوب حدوث العكس وهو إلغاء القضاء الأهلي وتثبيت الشرعي، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكان يقول عن وظيفته في الأزهر قولاً لابد أن يسمعه شيخ الأزهر اليوم:

"إن الأزهر أمانة في عنقي أسلمها حين أسلمها موفورة كاملة، وإذا لم يتأتّ أن يحصل للأزهر مزيد الازدهار على يدي فلا أقل من ألا يحصل له نقص"، وهي مقولة جليلة.

ومن شعره:

للشيخ شعر جيد كثير ضمن بعضه في ديوان منشور، سماه "خواطر الحياة"، فمنه في ذم الكماليين الذين ألغوا الخلافة:

ما خَطْبُ قومٍ – طالما وصلوكِ   واعتز باسمكِ عرشُهم- هجروكِ
حرسوك أحقاباً وحَلّق صيتهم   في الخافقين لأنهم حرسوكِ

ومنه حين نصحه بعض أصحابه بالرجوع إلى الشام وترك مصر:

يقول: تقيم في مصر وحيداً   وفقد الأُنس إحدى الموتتين
ألا تَحْدو المطية نحو أرض   تعيد إليك أنس الأُسرتين
وعيشاً ناعماً يدع البقايا   من الأعمار بِيضاً كاللُجين
فقلت له: أيحلو لي إياب   وتلك الأرض طافحة بغَيْنِ
وما غينُ البلاد سوى اعتساف   يدنسها به خُرْق اليدين

والغين هو الغيم، والمقصود به الاستخراب الفرنسي الذي خرب الشام آنذاك.

وقال يمدح الأمير محمد عبدالكريم الخطابي يوم جاءت السفينة به من منفاه واستطاع بعض المخلصين تخليصه في السويس وهو في طريقه إلى سجنه بفرنسا، فقال على الباخرة مرحباً به:

قلت للشرق وقد قام على قدم يَعِرض أرباب المزايا
أرني طلعة شهم ينتضي سيفه العَضْب ولا يخشى المنايا
أَرِنيها إنني من أمة تركب الهول ولا ترضى الدنايا
فأراني بطل الريف الذي دحر الأعداء فارتدوا خزايا

من الأقوال في مدحه:

ـــ قال فيه العلامة عبد المجيد اللبان رئيس لجنة امتحان شهادة العالمية بالأزهر يوم تقدم إليها للاختبار:

"هذا بحر لا ساحل له فكيف نقف معه في حِجاج".

ـــ وقال عنه الشيخ العلامة محمد علي النجار:

"إن الشيخ اجتمع فيه من الفضائل ما لم يجتمع في غيره، إلا في النُدْرَى؛ فقد كان عالماً ضليعاً بأحوال المجتمع ومراميه، لا يشذ عنه مقاصد الناس ومعاقد شؤونهم، حفيظاً على العروبة والدين، يردّ ما يوجه إليهما وما يصدر من الأفكار منابذاً لهما، قوي الحجة، حسن الجدال، عف اللسان والقلم".

ـــ وقال عنه العلامة الضخم الجليل الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور:

"إنه من أفذاذ علماء الإسلام، وقد كان قليل النظير في مصر".

ــ زواجه:

تزوج الشيخ أربع مرات، مرة بتونس وقد ترك زوجه عند خروجه من تونس لرفض أهلها أن يصحبها معه، وتزوج في سوريا ثم طلق، ثم تزوج في مصر امرأة عاشت معه ثلاثين سنة ثم ماتت، فتزوج من امرأة من أهل زوجه المصرية.

ولم يرزق الشيخ بأولاد من أي من زوجاته.

ــ مؤلفاته:

للشيخ عدة كتب منها:

"وسائل الإصلاح" ثلاثة أجزاء.

وفي الكتاب نقد للأوضاع القائمة، وتقويم لها، وفيه ردٌ على بعض الضلال الفكري الذي كان سمة من سمات ذلك العصر، وفيه تركيز على أثر العلماء والعناية بهم وحثهم على القيام بوظائفهم.

"بلاغة القرآن".

"أديان العرب قبل الإسلام".

"تونس وجامع الزيتونة".

"حياة ابن خلدون".

"دراسات في العربية وتاريخها".

"تونس: ٦٧ عاماً تحت الاحتلال الفرنساوي" أصدره سنة ١٩٤٨.

"أدب الرحلات".

"الحرية في الإسلام".

"آداب الحرب في الإسلام".

"تعليقات على كتاب الموافقات" للشاطبي.

إضافة إلى مئات المقالات والمحاضرات.

ـــ وفاته:

توفي -رحمه الله تعالى وغفر لنا وله- في رجب مضر سنة ١٣٧٧/١٩٥٨ عن أربع وثمانين سنة، ودفن في القاهرة في مقبرة أصدقائه آل تيمور، وأهدى مكتبته العلمية النادرة الضخمة لزوجه الأخيرة.

وقد احتفلت تونس رسمياً بالذكرى الخمسين لوفاته وأبرزت أعماله، وهذا منهم عجيب؛ إذ يحتفلون بالشيخ الذي يناقضون عمله وسعيه واتجاهه في كل نواحي الحياة في تونس اليوم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

٧- العالـم السياسـي
الحاج محمد أمين الحسيني
١٣١٥ – ١٣٩٤
١٨٩٧ – ١٩٧٤

أكثر العلماء في العصر الحديث كانوا عن السياسة بمعزل، بل بعضهم لعن فعل ساس ويسوس واستعاذ منهما وبرئ من تبعاتهما فصار في معزل عن آمال الجماهير وآلامهم، لكن الشيخ محمد أمين الحسيني كان -على علمه وفضله- رأس ساسة فلسطين، ومن السياسيين الكبار المعدودين في عهده.

ولد -رحمه الله تعالى- في القدس سنة ١٣١٥/١٨٩٧ في أحوال صعبة، والأمة الإسلامية قد بلغت درجة مؤسفة من الضعف والهوان على الله وعلى الناس، وكانت أسرته أسرة علم وفضل تنتسب إلى بيت النبوة الطاهر، ووالده طاهر الحسيني كان مفتياً للقدس ونقيباً للأشراف وتوفي سنة ١٣٢٦/١٩٠٨، وتلقى الشيخ محمد القرآن وعلوم الدين والعربية على أبيه وعلى آخرين جاء بهم والده إلى بيته لتعليمه، ودرس في الكتّاب أيضاً، وحفظ القرآن وهو في العاشرة، ثم أرسله والده إلى مدارس القدس الابتدائية ثم الثانوية -ولم يكن آنذاك نظام الإعدادية المتوسطة قائماً- ثم أدخله مدرسة "الفرير" لتعلم الفرنسية، ثم أرسله والده للأزهر فدرس فيه وفي كلية الآداب في الجامعة المصرية، ودرس أيضاً في مدرسة الأستاذ محمد رشيد رضا "دار الدعوة والإرشاد".

دراسته في الكلية العسكرية في اسطنبول:

عاد إلى القدس في إجازة سنة ١٣٣٢/١٩١٤ فعَلِق هناك لقيام الحرب العالمية الأولى فلم يعد يستطيع العودة، فذهب إلى اسطنبول ليكمل دراسته لكنه آثر أن يدرس العسكرية ففعل وتخرج في

الكلية العسكرية ضابطاً ليكون أحد العلماء القلائل جداً الجامعين بين الدراسة العسكرية والدينية في العصر الحديث، وقد تنقل في عدة مراكزَ عسكرية في الدولة العثمانية، ثم ترك العسكرية في نهاية الحرب العالمية الأولى بعد اكتسابه خبرة جيدة ساعدته بعد ذلك في العمل العسكري والسياسي.

وكان يقول عن خبرته تلك:

"إنني ضابط قديم، لي خبرتي في الحرب، وليس الدم الذي يجري في عروقي دم العلماء فحسب، وإنما دم المجاهدين".

وجاءت شهرته بالحاج لذهابه إلى الحج مع والدته سنة ١٣٣١/١٩١٣ في وقت عَزّ فيه حج العلماء والمشايخ فاشتهر بالحاج ولصق به اللقب طوال حياته.

أعماله ومناصبه ووظائفه:

كان الشيخ محمد أمين الحسيني مِلءِ السمع والبصر في فلسطين وغيرها، وله أعمال كثيرة جداً، وتولى الشيخ رحمه الله تعالى عدة مناصب ووظائف، سأسردها هاهنا قبل ذكر تفاصيل عمله حتى يكون ذلك معيناً للقارئين على فهم تلك التفاصيل.

ـــ تأسيس ورئاسة "النادي العربي"، وهو أول منظمة سياسية في فلسطين، وكان من مبادئه العمل على استقلال البلاد العربية والعمل على اتحادها، وكان الحاج أمين يؤمن بسوريا الكبرى وفلسطين جزء منها.

ــ عمل مدرساً بمدرسة روضة المعارف الوطنية، وكانت المدرسة تموج بالحركة القومية والإسلامية، ودرّس في المدرسة الرشيدية في القدس.

ــ رأس أول مجلس للشؤون الإسلامية والأوقاف والمحاكم الشرعية وهو "المجلس الإسلامي الأعلى لفلسطين" سنة ١٣٤٠/١٩٢٢.

ــ تولى منصب مفتي القدس بعد أخيه الحاج كامل الحسيني.

ــ أعاد تنظيم ١٨ محكمة شرعية في فلسطين.

ــ تولى ولاية الأوقاف الإسلامية في فلسطين بعد أن انتزعها من اليهودي الانجليزي بنتويش.

ــ أسس عدة مدارس إسلامية في فلسطين.

ــ أسس الكلية الإسلامية سنة ١٣٤٢/١٩٢٤ في القدس.

ــ تولى رئاسة لجنة ترميم المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

ــ تولى رئاسة المؤتمر الإسلامي العام الذي ابتدأ سنة ١٣٥٠/١٩٣١ في القدس، ثم تكرر انعقاده في مكة وبغداد وكراتشي وغيرها.

ــ كون جمعية "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" في فلسطين للإصلاح ومقاومة شراء اليهود للأراضي.

ــ تأسيس ورئاسة "اللجنة العربية العليا" في فلسطين.

ـــ الإشراف على إنشاء "جيش الجهاد المقدس" سنة ١٣٥٤/١٩٣٥ بقيادة الشهيد بإذن الله تعالى عبدالقادر الحسيني.

ـــ المشاركة في ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق ضد الانجليز سنة ١٣٦٠/١٩٤١.

ـــ إنشاء مكاتب للحركة العربية والقضية الفلسطينية في برلين وروما وغيرهما في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية.

ـــ رئاسة "الهيئة العربية العليا لفلسطين" التي كُونت بقرار من جامعة الدول العربية سنة ١٣٦٥/١٩٤٦.

ـــ رئاسة وفد فلسطين في مؤتمر باندونج بإندونيسيا بصفة مراقب سنة ١٣٧٤/١٩٥٥.

ـــ رئاسة المؤتمر الوطني الفلسطيني الذي أعلن حكومة عموم فلسطين ووضع دستورها وبرنامج الحكومة سنة ١٣٦٧/١٩٤٨.

وغير ذلك من الأعمال والمناصب والوظائف التي تدل على همة الرجل العالية، وعمله الدائب من أجل قضية فلسطين وغيرها من بعض قضايا المسلمين الأخرى.

جهاد الحاج أمين الحسيني من أجل فلسطين:

لم يأل الحاج أمين الحسيني جهداً في سبيل إنقاذ فلسطين، وسافر من أجلها إلى سوريا وتركيا وأفغانستان وألمانيا وإيطاليا ومصر، وبدأ حياته العملية في فلسطين مدرساً ببعض مدارسها، ثم شارك في الأعمال الجهادية وفي المظاهرات التي قامت سنة

١٩٢٠/١٣٣٩ وقد اضطربت الأوضاع بسبب تحرش اليهود بالفلسطينيين، وقتل فيها بعض المسلمين واليهود، فاتهم اليهود الحاج أمين بأنه كان المحرض لأهالي القدس فحاولوا اغتياله فنجا، وحكم عليه الانجليز بالسجن واقتادوه إليه، وفي الطريق هجم على الجنود بعض الشباب وخلصوا الحاج من بين أيديهم، فهرب عبر البحر الميت إلى الكَرَك -في الأردن اليوم- ومنها إلى دمشق ليكون بجوار فيصل بنِ الحسين الذي كان ملكاً على سورية، فحكم عليه الانجليز غيابياً بخمس عشرة سنة سجناً، وعندما حلت الإدارة المدنية مكان الإدارة العسكرية في فلسطين عفت عنه بضغط الفلسطينيين وعاد إلى القدس.

ثم عين مفتياً للقدس في السنة التي تلت المظاهرات فعمل على تحسين أحوال أهالي فلسطين الاقتصادية والتعليمية، ورعى الأوقاف الإسلامية.

ـــ وأسس مكتبة المسجد الأقصى التي حوت آلاف الكتب.

ـــ وفي سنة ١٩٢٢/١٣٤٠ انتخب رئيساً لـــ "المجلس الإسلامي الأعلى" في فلسطين، وكان هذا المجلس قد أسسه المسلمون ليتولوا بأنفسهم إدارة أوقافهم ومساجدهم، وعَدّ الإنجليز تأسيس هذا المجلس إنشاءً لحكومة ثالثة في فلسطين بجوار الحكومة البريطانية والعصابات اليهودية، وذلك لعظم المؤسسات والجهات التي يقوم عليها هذا المجلس؛ فهو مسؤولٍ عن ثماني عشرة محكمة شرعية، وجهازٍ مكون من ٢٥٠ معاوناً وست دوائر للأوقاف، فيها ٥٩٢ موظفاً، وعشر مدارس، وكلية إسلامية، وعدة مؤسسات أهمها دار الأيتام الإسلامية الصناعية في القدس.

وبعد انتخاب الحسيني رئيساً للمجلس بزغ نجمه، وعده الفلسطينيون رئيساً "روحياً" لهم، وبسبب ذلك نازعه الحُسّاد منصبه، وشكوه إلى الحاكم البريطاني مراراً، وجمعوا آلاف التواقيع ضده ورفعوها إلى الحاكم البريطاني!! وهذا يُظهر بجلاء أن المشكلة الدائمة هي اختلاف المسلمين فيما بينهم، وأن هذا الاختلاف هو الممكّن للأعداء من رقاب المسلمين لكن قومي لا يتعظون!!

ولما انتخب الشيخ رئيساً للمجلس سافر على رأس وفد من رجال فلسطين سنة ١٣٤١/١٩٢٣ إلى دمشق زمن استيلاء الفرنسيين على بلاد الشام، وأقام بفندق فكتوريا فجاءت فرقة من الجيش الفرنسي فطوّقت الفندق ومنعت الناس من السلام على الحاجٍ أمين ومَن معه، وطلب قائد القوة من الحاج مغادرة دمشق فوراً فرفض وقال للقائد الفرنسي: إن دمشق بلدي ولي حق الإقامة فيها، أما أنتم فغرباء عنها، دخلاء عليها، وليس من حقكم منعي من الإقامة في وطني، وقامت في دمشق مظاهرة شعبية كبيرة استياءً من صنيع فرنسا، ووقعت بعض الصدامات العنيفة بسبب ذلك، ففرق الفرنسيون المظاهرة، ثم حملوا المفتي بالقوة ونقلوه في دبابة فرنسية إلى الحدود العراقية.

ــ وأسس كلية إسلامية في ساحة المسجد الأقصى المبارك لتهيئة الطلاب للعمل في المراكز الدينية في المساجد والقضاء وغير ذلك.

ــ وفي سنة ١٣٤٣/١٩٢٥ أسس فرقاً كشفية كانت عسكرية في تدريبها وتشكيلها لكنها كشفية في ملابسها وزيها، وهذا من أجل الإعداد للجهاد.

وفي سنة ١٩٢٥/١٣٤٣ زار المشؤوم بلفور صاحب الوعد الظالم فلسطين من أجل افتتاح الجامعة العبرية في القدس فأضربت البلاد إضراباً شاملاً عاماً، وصدرت الصحف مجللة بالسواد، فأمر الحاج أمين -من خلال المجلس الإسلامي الأعلى- بأن تُغلق في وجهه جميع الأماكن الإسلامية المقدسة ومنعه من زيارتها أو الدخول إلى ساحاتها، فطلب المندوب السامي هربرت صموئيل من الحاج أن يزور بلفور الأقصى الشريف فلم يرض الحاج أمين، وأقفل أبواب المسجد وطلب من الحراس عدم فتحها لبلفور ومرافقيه، فلما جاؤوا وجدوا الأبواب مغلقة فعادوا، وهذا صنيع جليل من الحاج دال على عِزة؛ فإن بلفور وُصف بأنه أشد صهيونية من هرتزل!!

ـــ وفي سنة ١٩٢٩/١٣٤٧ بعد أحداث حائط البراق أسس جمعية "حماية البراق الشريف" لتقوم في وجه اليهود الذين أسسوا جمعية "أنصار حائط المبكى"، ونقل مكان سكنه من خارج القدس إلى بيت يشرف على الحائط مباشرة ليراقب الوضع هنالك.

ـــ وأسس أيضاً منظمة "الكف الأخضر" العسكرية التي تقف في وجه اليهود وتحمي المقدسات، وتقتل العملاء الخونة.

وفي سنة ١٩٣١/١٣٥٠ دعا الحاج أمين الحسيني زعماء العرب والمسلمين إلى عقد مؤتمر عام في القدس للدفاع عن قضية فلسطين، فلُبيت دعوته وحضر زعماء وقادة وعلماء من الدول العربية ومن أفغانستان وإيران والهند والملايو ونيجيريا وغيرها، وانتخب الحاج أمين رئيساً لذلك المؤتمر، وبهذا يكون الحاج محمد أمين الحسيني

قد نقل القضية الفلسطينية من المحلية إلى العالمية، ووجه المؤتمر بعقبات عديدة من حُسّاد الداخل وجُهّال الخارج لكن الحاج الحسيني تمكن من تذليل تلك العقبات، وعقد المؤتمر سبع عشرة جلسة في عشرة أيام وتمخض عن قرارات مهمة لكن ريا السياسة العالمية والإسلامية غير المواتية عطلت تلك القرارات.

ـــ وأسس منظمة "الجوال المسلم" التي انتسب إليها أكثر من ألفين من الشباب، وكان منهم عُدة للشيخ بعد ذلك في بعض الحوادث.

وقد ذكرت من قبل أنه أسس سنة ١٣٥٤/١٩٣٥ منظمة الجهاد المقدس واختار الشهيد -إن شاء الله- عبدالقادر الحسيني قائداً لها، وكانت تحت إشراف الحاج ورئاسته سراً، وكان لهذه المنظمة يد طولى في الجهاد في فلسطين إلى أن سقطت سنة ١٣٦٧/١٩٤٨.

وفي عام ١٣٥٥/١٩٣٦ حصل الإضراب العظيم في فلسطين، فاجتمع ممثلو الأحزاب السياسية في فلسطين وقرروا تأسيس "اللجنة العربية العليا" لفلسطين برئاسة الحاج أمين الحسيني، فاجتمع له بذلك القيادة الدينية والسياسية برئاسة هذه اللجنة ورئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، وهذا لم يتيسر لعالم في العصر الحديث، فيما أعلم، إلا لقلة قليلة جداً منهم عثمان بن فودي في نيجيريا والسنوسي في ليبيا وعبدالكريم الخطابي في الريف المغربي.

وصار الحاج أمين بذلك رئيساً للفلسطينيين بلا منازع.

وألّف الحاج أمين عدة لجان سرية لشراء السلاح من فلسطين وخارجها، وأقام مراكز للتدريب على السلاح وحرب العصابات على يد الضباط العرب المتقاعدين من الجيش العثماني السابق.

وأصدر فتوى بعدم دفن من يبيع أرضه لليهود في مقابر المسلمين، وأنه خارج عن الإسلام.

ورفضت اللجنة العربية العليا برئاسة الحاج أمين الوعد بقرار التقسيم الصادر سنة ١٩٣٧ فرأى الإنجليز في الحاج أكبر عقبة أمامهم.

ولما عَظُم نشاط الحاج أمين وظهرت نيته في جهاد اليهود والإنجليز ضيق عليه الانجليز، خاصة بعد اغتيال حاكم لواء الجليل آندروز بيد المجاهدين سنة ١٣٥٦/١٩٣٧، فأراد الإنجليز اعتقاله ففر إلى لبنان، وفي ذلك قالت جريدة "التايمز" الانجليزية في عددها الصادر في ١٦/٧/١٩٣٧:

"إن المفتي هو العقبة الوحيدة أمام حل القضية الفلسطينية والتفاهم مع اليهود، فيجب على حكومة بريطانيا ألا تترك الساحة خالية لنشاطه، بل عليها أن تقيله من مناصبه وأن تبطش به وبالفريق المتصلب العنيد من المتطرفين".

وكان الشيخ -قبل تضييق السلطات البريطانية الخناق عليه وفراره إلى لبنان- يريد الجهاد، وقد كتب في مذكراته شارحاً لهذا الأمر فقال:

"وقد كنت أبديت رغبتي لصفوة من قادة المجاهدين في الخروج من القدس عام ١٩٣٧ إلى إحدى المناطق الجبلية المنيعة في فلسطين للمشاركة الفعلية في الجهاد؛ إذ كنت قد مارست الجندية عندما كنت ضابطاً في الجيش العثماني طول مدة الحرب العالمية الأولى، ولكن أولئك القادة -بعد دراسة عميقة للموضوع- عارضوا هذه الرغبة بقوة قائلين: إن وجودي في أي منطقة من مناطق الثورة يجعلها هدفاً مركزاً للأعمال العسكرية البريطانية، ومهاجمتها بالطائرات والمدافع والمصفحات حتى يقضوا عليها".

وفي لبنان ضيق عليه الفرنسيون وحددوا إقامته في بلدة سكانها نصارى وهي جونية ليحدوا من نشاطه، وكان ذلك قُبيل الحرب العالمية الثانية، وحاولوا اغتياله، وسجنوا عدداً من المجاهدين.

وبعد أن مكث سنتين في لبنان فرّ إلى العراق فأسس فيه "حزب الأمة العربية" برئاسته وكان حزباً سرياً انضم إليه رشيد عالي الكيلاني صاحب الثورة المشهورة سنة ١٣٦٠/١٩٤١ ضد الإنكليز في العراق، وغيره من العسكريين وقد ساعده المفتي في ثورته هذه وأمده بالرجال.

وطلب المفتي من السلطات العراقية تدريب الفلسطينيين الموجودين في العراق تدريباً عسكرياً فوافقته، وأصلح بين فريق نوري السعيد وفريق رشيد عالي الكيلاني فقد كان الأول يرى التعاون مع الإنجليز بينما كان رشيد ثائراً ضدهم، واستطاع أن يحسن العلاقات

بين السعودية والعراق، وكل ذلك أثار عليه حقد الإنجليز وغضبهم، فحاولوا اعتقاله فهرب إلى إيران.

فلما احتلت روسيا وبريطانيا طهران استطاع الهرب إلى إيطاليا عبر تركيا، ومنها إلى بلغاريا، وقد وصلها من طهران في اثنين وعشرين يوماً في رحلة برية عسيرة، فلما وصل إلى بلغاريا اشتد حزنه لأنه شعر بالأمان من الانجليز في تلك الديار بينما كان مطارداً في بلاد الإسلام، وكان يردد في سره: أين هي دار الإسلام؟

ثم سافر إلى ألمانيا فحلّ ضيفاً على الحكومة الألمانية، وحاول استمالة الألمان والطليان إلى مطالب الدول العربية والاعتراف باستقلال الواقع منها تحت الاحتلال البريطاني، وحاول مع الألمان أن يعملوا على القضاء على الوجود اليهودي في فلسطين، وحصل من ألمانيا وإيطاليا على تعهد رسمي بذلك لكن كانت تلك مناورات سياسية من قبل ألمانيا لم تُعطِ مقابلها شيئاً حقيقياً للحاج أمين ومَن وراءه، والدليل على ذلك أنها رفضت طلباً منه بإيقاف هجرة اليهود الألمان إلى فلسطين.

قابل الحاج أمين هتلر في سنة ١٠/١١/١٣٦٠-٢٨/١١/١٩٤١، وطلب منه المساعدة في القضاء على الصهاينة، فأخبره هتلر أن هدفه هو القضاء على الشيوعيين واليهود، وأن هذا سيوئد المشروع الصهيوني، وطلب منه الاعتراف باستقلال البلاد العربية لكن هتلر لم يفعل بحجة أن الوقت ليس مناسباً لمثل هذا الإعلان.

والعجيب ما حكاه الدكتور فهمي الشناوي في جريدة اللواء الأردنية بتاريخ ١٩٨٤/٩/١٢ أن المفتي عرض على هتلر "أن يقوم بتجنيد جيش من متطوعي العرب في الشمال الإفريقي يشعلون ثورة وطنية تمنع هبوط الخلفاء فكان رد هتلر عجيباً ومثيراً حيث قال: لا، إنني لا أخشى الشيوعية الدولية، ولا أخشى الامبريالية الأمريكية البريطانية الصهيونية ولكنني أخشى أكثر من كل هذا الإسلام السياسي الدولي!!".

وهذا يبين بجلاء أن الكفر ملة واحدة.

وأنشأ في ألمانيا إدارة سميت "مكتب المفتي" وكان لها نشاط جيد ضد اليهود والإنجليز، وأنشأ إذاعة، وصار يجند مسلمي أوروبا وجنوب روسيا في وحدات حربية مسلحة، وكون نواة جيش عربي، وأسس لذلك مدرستين حربيتين في برلين، وأقام دورة في هولندا لتدريب ستين من "المغاوير" دخلت الحرب في فلسطين بعد ذلك.

ولما هزمت ألمانيا في الحرب قبض عليه الفرنسيون وحددوا إقامته في فرنسا لكنه هرب إلى القاهرة التي استضافته رغم أنف الإنجليز الذين اعترضوا على قرار الحكومة المصرية، وكان قرار الاستضافة ناشئاً من ضغط من الإخوان المسلمين -وعلى رأسهم الإمام البنا- وغيرهم من القوى الإسلامية والوطنية.

وفي مصر ألف الحاج أمين "الهيئة العربية العليا لفلسطين" برئاسته، ونظم الحركة الوطنية الفلسطينية، وألف لجنة من قادة المجاهدين الفلسطينيين وغيرهم لإنقاذ فلسطين من قرار التقسيم الذي كان صدوره متوقعاً آنذاك، وأعاد تنظيم جيش الجهاد المقدس وأسند

قيادته إلى الشهيد -بإذن الله- عبدالقادر الحسيني، وأنشأ منظمة الشباب الفلسطيني التي ضمت فرق الجوالة والكشافة والفتوة وأسند قيادتها للصاغ محمود لبيب أحد الإخوان المسلمين المصريين المجاهدين، وكلفه بتدريب الشباب على القتال، وكان المفتي يهرب الأسلحة إلى داخل فلسطين، ويوجه المجاهدين ويمدهم بالمال والسلاح.

وساعده الإخوان في مصر بالسلاح والمال والرجال، وكان الأستاذ البنا قد أرسل وفداً إلى فلسطين سنة ١٣٥٤/١٩٣٥، فصلته -إذن- بالمفتي قديمة.

وفي سنة ١٣٦٧/١٩٤٨ بعد الهزيمة ضيق عليه في مصر تحت ضغط الإنكليز لكنه تمكن من الخروج منها، وعقد الحاج أمين الحسيني في غزة في ١/١٢/١٩٤٨ مؤتمراً فلسطينياً كبيراً سُمي "المجلس الوطني الفلسطيني" انتخب الحاج فيه رئيساً له، وأعلن هذا المؤتمر استقلال فلسطين ووضع دستوراً لها، وشكل لها وزارة دعيت بحكومة عموم فلسطين برئاسة أحمد عبدالباقي لكن المؤامرات على هذه الحكومة أرغمتها على الانتقال إلى مصر، ولم يكن المفتي يريد الانتقال إلى مصر التي ألحّت عليه كثيراً لكنه كان يرفض فقام اللواء حسين سري بنقله قسراً في قافلة عسكرية، فلما وصل إلى القاهرة وضع تحت رقابة شديدة ومُنع من العودة إلى فلسطين.

وحُرمت "الهيئة العربية العليا" من العمل والنشاط وأغلقت في وجهها الصحف والإذاعات، ونقلت القضية الفلسطينية من يدها إلى يد الجامعة العربية.

ولما قامت ثورة يوليو استبشر بها المفتي حيث إن بعض ضباطها ساعدوه في أيام نكبة فلسطين في تهريب الأسلحة، لكن هيهات للناصريين أن يستقيم أمرهم مع رجل إسلامي مجاهد كالحاج أمين الحسيني، فضيقوا عليه، ومنعوه من الاتصالات، وراقبوا كل من يزوره، وأخمدت قضية فلسطين وحولتها إلى قضية لاجئين إعلامية، فاضطر لمغادرة مصر سنة ١٣٧٨/١٩٥٩ إثر مؤامرات على "الهيئة العربية العليا" ورجالها وتشويه إعلامي لأعمالهم، وذلك عقب الإعلان عن قبول الجمهورية العربية المتحدة برئاسة عبدالناصر لمشروع أمين عام هيئة الأمم المتحدة هامر شولد القاضي بتعويض الدول العربية التي فيها فلسطينيون وتصفية القضية الفلسطينية بما يسمى بالحل السلمي، ففرّ الحاج من القاهرة إلى بيروت حيث ساهم في إفشال المشروع هنالك، فكان لابد من إنشاء قيادة بديلة للشعب الفلسطيني تكون خاضعة لمصر وتوجهاتها، وتكون قابلة للاحتواء والتدجين، فاختارت الناصرية قيادة علمانية لفلسطين سنة ١٣٨٣/١٩٦٣-١٩٦٤، ونحّت عمداً الحاج محمد أمين الحسيني الذي لا يستقيم تصوره الإسلامي مع تُرّهات الناصريين آنذاك وتلاعبهم بمصير القضية الفلسطينية، وأُنشئت منظمة التحرير الفلسطينية التي حادت عن مسارها وساهمت بقوة في كل النكبات التي نزلت بفلسطين بعد ذلك بسبب بعدها عن منهج الله تعالى وارتمائها في أحضان الشرق ثم الغرب وتضييعها الجهاد.

وفي لبنان كان ينبه المسؤولين العرب إلى الخطر الصهيوني، والمطامع اليهودية ليس في فلسطين وحدها بل في البلاد العربية المجاورة.

وفي بيروت أصيب بأزمة قلبية لما سمع بنكبة سنة ١٩٦٧/١٣٨٧؛ إذ عَزّ عليه أن تُساق الجنود إلى هزيمة مذلة بدون تخطيط ولا تنسيق، وقد كتب الله له السلامة من هذا المرض فبقي على جهاده وحماسه حتى رأى انتصار رمضان سنة ١٩٧٣/١٣٩٣.

وأصدر في بيروت مجلة "فلسطين" الشهرية.

وقبل وفاته بأشهر قليلة زار الرياض فتحدث عن قضية فلسطين ثلاث ساعات، وكان يبكي أثناء حديثه ويوصي الحاضرين ألا يصالح العرب اليهود مهما طالت مدة الاحتلال، وليس هناك حل إلا بالجهاد.

وقبل وفاته بقليل قال:

"كنت أتمنى لو مت قبل أن أسمع فلسطينياً يحمل السلاح ويسير في درب الجهاد ثم ينخدع بفكرة الحلول السلمية".

وظل في بيروت إلى وفاته، فلما مات قالت عنه بعض الصحف البريطانية: "مات عدو الصهيونية والإمبراطورية البريطانية".

ـــ من مواقف الحاج محمد أمين الحسيني إضافة إلى ما سبق:

من مواقفه وهو طفل أن هرتزل رئيس الحركة الصهيونية العالمية أراد أن يؤسس مُغتصبة "مستوطنة" قرب قرية فالونيا، وهي التي كان يتعلم بها الحاج أمين في طفولته، وغرس هرتزل شجرة لهذه المغتصبة فذهب الحاج وأصدقاؤه فقطعوا هذه الشجرة، وهذا منه في طفولته دال على استعداد فطري للمقاومة والجهاد.

ـــ ومن مواقفه أنه جمع ٣٠٠٠ متطوع من القدس والخليل وسافر معهم إلى الأردن للانضمام إلى جيش فيصل بن الحسين الذي كان في العقبة يتأهب للدخول إلى دمشق وإعلان الحكومة العربية فيها بعد زوال الحكم العثماني عنها في نهايات الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨، وكان الحاج أمين يحارب مع فيصل بن الحسين.

ـــ وفي سنة ١٣٤٣/١٩٢٥ قامت مظاهرات في سوريا ضد الفرنسيين فقابلوا هذا بالعنف -على عاداتهم في الهَوَج والشدة- وضربوا دمشق بالمدفعية، ورموا عليها القنابل بالطائرات، فأرسل الحاج مئات البرقيات إلى زعماء العالم الإسلامي مبنياً صنيع الفرنسيين ومشتداً عليهم، وأسس "اللجنة المركزية الفلسطينية لإغاثة السوريين المتضررين"، وأوصل المساعدات من أنحاء العالم إلى الثوار السوريين، وقال الأستاذ نويهض في هذا "رأيت وسط الثوار مسلمين مقاتلين من السنغال انضموا إلى إخوانهم بتشجيع من المفتي الحاج أمين الحسيني عندما كان في مكة للمشاركة في المؤتمر الإسلامي سنة ١٩٢٦".

ـــ ومن مواقفه المضيئة أنه أثناء وجوده في ألمانيا سمع بالمآسي التي حَلّت بالبوسنويين عندما تآمر عليهم الصرب والكروات فاتفق مع الألمان على تجنيد الشباب البوسنويين وتسليحهم للدفاع عن أنفسهم، واتفق مع الألمان على إنشاء معهد للأئمة ليرعى المتخرجون منه شؤون العسكريين البوسنيين الذين بلغ عددهم مائة ألف مقاتل، وكذلك أنشأ معهداً آخر في درسدن بألمانيا لتخريج الأئمة الأذربيجانيين وغيرهم من القوقاز، وبذلك استطاع بفضل الله عليه أن يحمي الوجود الإسلامي في البلقان وشرق أوروبا من المجازر المتوقعة في الحرب العالمية الثانية.

وهذه المواقف الثلاثة السابقة توضح بجلاء أن الحاج أمين الحسيني لم يكن لفلسطين فقط بل كان أينما حَلّ مدافعاً عن قضايا المسلمين، عاملاً على إنقاذهم من أعدائهم، وهكذا ينبغي للزعيم السياسي المسلم أن يكون مهتماً بقضيته الكبرى ولا ينسى القضايا الإسلامية الأخرى.

ـــ ومن مواقفه المهمة أنه اشترى الأراضي التي كانت مهددة بالتسرب إلى يد اليهود، اشتراها بوساطة المجلس الإسلامي الأعلى الذي كان يرأسه، وأرسل الوعاظ إلى الناس ليبينوا لهم حرمة بيع الأراضي لليهود أو لسماسرة اليهود وتكفير من يصنع ذلك، وعدم دفنه في مدافن المسلمين، وحث الفلاحين على التمسك بأراضيهم، وهذا الموقف ساهم بقوة في منع كثير من الفلسطينيين من بيع أراضيهم لليهود أو لسماسرة اليهود.

نقد لمسيرة الحاج أمين:

هناك بعض الانتقادات لمسيرة الحاج أمين السياسية منها أنه لم يُعن بجوانب التربية الإسلامية لأتباعه كما ينبغي، وأنه لم يهتم بتنظيم أتباعه تنظيماً قوياً قائماً على أسس إسلامية صرفة، وأنه كان يولي النصارى اهتماماً أكبر مما ينبغي لهم فقد كانت نسبتهم في الحزب العربي الذي أسسه ٣١% بينما نسبتهم في فلسطين لا تتجاوز ١١%.

ومن الانتقادات أيضاً أن الإسلام لم يكن الركيزة الوحيدة للطرح والتصور عند الحاج أمين.

وغير ذلك من الانتقادات التي أوردها الأستاذ محمد الناصر في كتابه "علماء الشام في القرن العشرين" نقلاً عن الأستاذ محسن صالح وبيان الحوت، ثم دفع عنه الأستاذ محمد الناصر بعض ذلك بنقله عن أحد معاصري الحاج أمين أنه كان يعتمد على الشيخ حسن البنا وجماعته ليسدوا ثغرة القضايا التربوية، وأنه تعاون مع البنا ومع قيادات إسلامية كثيرة في العالم الإسلامي.

ودفع عنه الأستاذ محسن صالح بعض الانتقادات الأخرى بتقريره أن الحاج أمين كان زعيم الشعب بمختلف فئاته فهذا أداه إلى أن يطرح فكره بمرونة تستوعب الاتجاهات الإسلامية والقومية والعلمانية، كما أن انشغاله منعه من التنظيم القوي لأتباعه.

وأرى والله -تعالى أعلم- أن الحاج أمين كان مسلماً صحيح الإسلام، مجاهداً، غيوراً على الإسلام والمسلمين، واعياً، عالماً بما ينبغي أن يقوم به، فاقهاً لواقعه، لكنه أراد أن يستفيد من كل شخص مهما كان اتجاهه، ولا يعني هذا أنه تنازل عن مبادئه لكنه ينبئ أن الشيخ لم يلتفت -كما ينبغي- لما التفت إليه غيره من إنشاء تنظيم إسلامي صلب متين يقي الله به فلسطين من عوادي الجاهلين الذين أقصوه بسهولة وأمسكوا بالقضية مفرطين، ضائعين ومضيعين.

وفاته:

توفي الحاج أمين الحسيني في بيروت سنة ١٣٩٤/١٩٧٤، وقد بقي على حماسه إلى وفاته رحمه الله تعالى فقد قال الأستاذ الفاضل عبدالله العقيل:

"زرته في أواخر أيامه في بيروت مع بعض الإخوة الكويتيين والسوريين والمصريين فوجدت هذا الشيخ المهيب والكهل الوقور يتوقد حماساً يفوق حماس الشباب، ويعرض الأمور ويحلل الأحداث بعين الناقد البصير والسياسي المحنك، الخبير المجرب، وكانت وصيته ألا نقطع الأمل، وأن نبقى على العهد في مواصلة الجهاد".

ولما مات رفض اليهود السماح لجثمانه بالدخول إلى بيت المقدس ليدفن هناك حسب وصيته.

من الأقوال المثنية عليه:

ــ قال الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى:

"رحمك الله يا مجاهد فلسطين، إن حادثة وفاة سماحة المفتي الأكبر حادثة عمت العالم الإسلامي كله وهزته، وقد فقد العالم الإسلامي في شخصه أقدم زعيم وأكبر مجاهد وأعظم بطل من أبطال قضية المسجد الأقصى والقدس الشريف.

لقد خُتم بوفاته كتاب في الجهاد والإخلاص للعقيدة والفكرة والوفاء للمبدأ و الغاية، وانتهى به عهد يمتد على أكثر من ستين سنة لم يهدأ له فيه بال ولم يقرّ له قرار، ولم يضع فيه السلاح، ولم ينسحب فيه من ميدان الكفاح".

ولما قامت الحرب الأهلية في لبنان بعد وفاة الحاج أمين بشهور هجم مجموعة من العملاء على دار المفتي واقتحموا مكتب "الهيئة العربية العليا" القريب من الدار، ودمروا كل شيء ثم أحرقوا

الدار والمكتب!! ولم يكن في الدار سوى بعض النساء، وكان في المكتب بعض الموظفين، وقد هرب كل أولئك بعد أن شهدوا احتراق المكتب والدار واحتراق مئات الكتب النادرة والوثائق والمراسلات التي كانت فيهما، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي النهاية أقول:

يكفي الحاج محمد أمين الحسيني شرفاً وفخراً أنه ظل على الولاء لإسلامه وأمته إلى حين وفاته، وأسلم الروح غير مبدل ولا مغير، وسط ركام هائل من الأهواء والضلال العقدي والفكري والتنازلات التي لا حصر لها، وأرجو أن يكتب الله له أجر جهاده ويلحقه بالصالحين في عليين.

ــ وهناك ملحظ مهم أختم به، ألا وهو:

قد كان الحاج محمد أمين الحسيني ومن معه من أبطال فلسطين بدون سند حقيقي من الحكومات العربية والإسلامية، وكانوا يصارعون تياراً أقوى منهم بكثير، تيار الصهيونية العالمية مدعوماً بالصليبية البريطانية وغيرها، ومع ذلك فقد عمل المجاهدون الأبطال كثيراً من الأعمال المشرفة، ولولا الخيانات العربية والتخاذل الإسلامي لكان لهم شأن آخر، وإنما أقول ذلك حتى تعلم حماس ومن معها اليوم من أبطال المجاهدين في فلسطين أن التاريخ يعيد نفسه، وأنه ليس لهم سند حقيقي ولا ركن شديد يأوون إليه سوى الله -تعالى- فليحكموا أمرهم، وليتوكلوا على الله ربهم، وليقطعوا الأمل من كل ما سوى الله

تعالى، وهو سبحانه ناصرهم إن شاء وممكنهم في الأرض، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، والله أكبر[1].

(١) اختلفت الأقوال في علاقة الحسيني بالقسام، فمِن قائل إن الذي بينهما كان فاسداً وسيئاً، ومِن قائل إن الذي بينهما كان عامراً وصالحاً إنما أظهرا الاختلاف في العلن للتورية والتعمية وتنسيق المواقف، وقد أورد كل فريق حججه لكني لم أر من درس الأمر دراسة وافية وخرج برأي تسنده الأدلة والوثائق، فالله أعلم، فقد كان الحسيني شمساً في سماء فلسطين والقسام قمرها، رحمهما الله تعالى رحمة واسعة.

٨- إمام أهل السنة

محمود عبدالوهاب فايد

١٣٣٩ – ١٤١٨

١٩٢١ – ١٩٩٧

زمن الطغيان الناصري، والاستكبار العاتي، والجبروت الشديد كان هناك علماء قلائل جداً استطاعوا الوقوف أمام الطاغية وقول كلمة الحق، ومن هؤلاء وربما على رأسهم الشيخ العالم العامل محمود عبدالوهاب فايد، رحمه الله تعالى.

ولد سنة ١٩٢١/١٣٣٩ في قرية "دمينكة" وهي تتبع محافظة كفر الشيخ، وأسرته معروفة بالعلم والدين؛ فوالده معروف بالعلم والصلاح، وجده الشيخ مبروك كان عالماً شرعياً، وأخوه الأكبر مأذون القرية ومعروف بتدينه وورعه، وأخوه الذي يلي الأكبر هو د.عبدالوهاب، وهو مدرس في كلية أصول الدين بالجامع الأزهر، وابن عمه الشيخ محمد عبدالغني كان واعظاً بالأزهر ومعروفاً بالصلاح، وغير هؤلاء مما يدل على صلاح الأسرة في الجملة، وتعلق عدد من أفرادها بالعلم الشرعي.

حفظه والده القرآن العظيم، ثم ألحقه بمعهد دسوق الديني الابتدائي التابع للأزهر، وحدثت له حادثة فيه ففصل ثم أعيد، وبعد فراغه من الدراسة في المعهد قصد معهد طنطا الثانوي للدراسة فيه، وفصل وسجن بسبب حادثة عرضت له سيأتي ذكرها، إن شاء الله تعالى.

ومن لطائف ما جرى عليه أنه قال:

"صليت بالناس إماماً في مسجد كبير بالأرياف صلاة المغرب ولم أجهر بقراءة البسملة في الفاتحة، وبعد الصلاة نادى أحدهم بالناس

إن صلاتكم باطلة، وأمر بإعادتها، فأقيمت الصلاة وصلى الشيخ خلف هذا المنادي، وبعد الصلاة ذهب إليه وقال: أحب أن أعلم الخطأ الذي استوجب بطلان الصلاة فقال: لأنك لم تُبسمل أول الفاتحة !!

ـــ من مواقفه المشرفة:

عقب الهزيمة المذلة سنة ١٣٨٧/١٩٦٧ طالب بمحاكمة الرئيس المصري عبدالناصر، فعزله من مناصبه بقرار جمهوري، وحاول بعض العلماء التدخل لدى الرئيس فأجابهم بشرط أن يحضروا منه التماساً بذلك، فذهب إليه الشيخ عبدالحليم محمود ليعرض عليه هذا الأمر فرفض الشيخ بإباء، وقال:

"أنا طالبت بمحاكمته ولم أطالب بإدانته، وفي المحكمة تنكشف الحقائق، ثم قال: عندما أُخبرت بقرار الفصل بالهاتف صليت ركعتين لله، ثم قلت: اللهم فارزقني وأنا من اليوم عبد خالص لك، وقد استجاب الله لي وأراحني من الذهاب والإياب، وأنا لدي مكتبة عامرة بالكتب ورثتها عن آبائي وأجدادي واشتريت المزيد فأنا أعكف على المطالعة والتأليف، ويأتيني من الرزق أضعاف ما كنت أتقاضاه من الوظيفة، وأحمد الله على نعمه، إنني أقول وقد وسّع الله علي، ياالله: لقد أرادوا أن يذلوني فأعزتني، لا أذل وأنا عبدك؛ عبدالعزيز، وأرادوا أن يضعفوني فقويتني، لا أضعف وأنا عبدك؛ عبد القوي، وأرادوا أن يفقروني فأغنيتني، لا أفتقر وأنا عبدك؛ عبدالغني".

وهذا موقف جليل منه في زمن الطغيان.

ـــ ومن المواقف المضيئة ما حدث حين أساء شيخ الأزهر عبدالرحمن تاج إلى منصبه وإلى الأزهر بممالأته للثوريين الناصريين وتقصيره في شأن الأزهر والأزهريين بلِ الإسلام والمسلمين، فهاجم شيخ الأزهر على سكوته وكتب مقالاً شهيراً سماه: "بسم الله والله أكبر فليستقل شيخ الأزهر"، ووجد المقال قبولاً كبيراً ورضى لدى جمهرة الأزهريين، فنقل الشيخ محمود نقلاً تأديبياً من معهد منوف إلى معهد قنا، ثم أوقف راتبه وأحيل إلى مجلس تأديبي، وفي ذلك المجلس نجاه الله تعالى ونصره على من عاداه، وعاد إلى معهده.

وقد شجعه والده في ذلك الموقف بقوله له لما استشاره:

"أنا لا يعنيني أن تُنقل إلى قنا أو تبقى هنا إنما يعنيني فقط أن تلزم جانب الحق في كل ما تقول".

ـــ ومن مواقفه ما حدث له أثناء الدراسة في معهد طنطا الثانوي، فقد اعترض الطلاب على كتاب يدرس في كلية الآداب فيه مساس برسول الله صلى الله عليه وسلم فثاروا وأضربوا عن الحضور إلى المعهد فبادر شيخ المعهد بفصل نفر منهم، فقام الشيخ محمود فايد بإلقاء قصيدة يعترض فيها على الفصل، فعوقب بالفصل والسجن !!

ـــ ومن المواقف أنه كان قد تخرج في كلية أصول الدين في الأزهر سنة ١٣٧٦/١٩٤٦، وكان الأول على الطلاب، فدعي الطلاب الأوائل إلى حفلة يحضرها الملك فاروق ويصافح فيها الخريجين، وأُمر الجميع بالانحناء عند المصافحة لكن الشيخ أبى وصافحه وهو منتصب القامة مرفوع الرأسٍ، وبسبب هذا الموقف صدر الأمر بتعيينه في سوهاج بالصعيد خلافاً لما جرى عليه العرف من تعيين الأوائل في القاهرة.

ــــ ومن مواقفه العظيمة أن عبدالناصر استهزأ مرة بالعلماء وهون من شأنهم، واتهمهم ببيع الفتاوى بالفراخ وأعلن ذلك في إحدى الخطب، فما كان من الشيخ محمود فايد إلا أن كتب مقالاً في مجلة الاعتصام عدد ربيع الأول سنة ١٣٨١/١٩٦١ في أوج الطغيان والخوف قال فيه بعد كلام غمز فيه من جانب الجيش واتهمه بموالاة الملك السابق يوم كان الشيخ يحارب الفساد:

" ... هل يجوز يا سيادة الرئيس أن يذاع على العالم وبجميع اللغات ومن رئيس الجمهورية العربية نفسه مثل هذا الكلام ؟!

لقد فاتك أن تعقب بأن كثيراً من ذوي العمائم كان لهم مواقف كريمة وغيرة مشكورة، وإحساس مرهف، وإنك لتعرف بعضهم، ولبعضهم عليك فضل، ومن فضل الله أن شعبنا فاضل واع ذكي أريب، يعرف مقاييس الرجال، ويميز الخبيث من الطيب.

وختاماً:

يكفي العلماء العاملين شرفاً وفخراً أن أحكم الحاكمين زكاهم ورفع قدرهم وخلد ذكرهم فقال سبحانه: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات" ويكفيهم في المدح والثناء قول أفضل البشر: "العلماء ورثة الأنبياء".

وهذا الكلام خطير وصعب أن يواجه به زعيم طاغية ظالم مثل عبدالناصر لكن الشيخ محمود فايد كان من طراز فريد من العلماء.

ــــ ومن مواقفه المشرفة مقالان نشر أحدهما أيام فاروق والآخر أيام عبدالناصر، قال في الأول يصف حال المسلمين:

"ملوكهم وحكامهم معنيون بمناصبهم، همهم أن تَسْلم لهم ... يسالمون عِداهم، ويذلون رعاياهم، يجمعون المال من دم الفلاحين وعرق الكادحين لينفقوه على ملذاهم، ويبعثروه على شهواهم، طوراً ينثرونه على موائد القمار ودور اللهو وكؤوس الشراب، وحيناً يبذلونه في مخاصرة النساء وسماع الغناء وما تتطلبه الليالي الحمراء، والويل شر الويل لمن تسول له نفسه أن ينكر عليهم أو يزجي النصح لهم فجزاؤه السجن وإن شئت فقل الإعدام".

وفي النص الآخر أيام عبدالناصر قال مخاطباً له:

"يا سيادة الرئيس: هذه الأموال الباهظة التي تنفق في غير موضعها، هذه المكافآت السخية التي تصرف من مال الدولة على الممثلين والممثلات، والراقصين والراقصات، والمغنين والمغنيات.

قلت يا سيادة الرئيس إنك تريد أن تطهر المجتمع من عوامل الحقد والأنانية والفساد والبغضاء، ومقتضى هذا المنطق أن تُقلم أظافر أولئك المترفين".

ـــ ومن مواقفه القوية أن فرقة راقصة من بلد شيوعي أرادت أن تقيم حفلاً في ميدان الحسين!! في رمضان سنة ١٣٨٧، فانتهز الشيخ محمود فرصة إقامة الجمعية حفلاً في ذكرى غزوة بدر فتكلم قائلا:

"أخزى الله هؤلاء السفهاء، لقد بلغ بهم السخف أن يحيوا رمضان بالمنكرات، وفي أي مكان ؟ في ميدان الحسين بين مسجده وبين إدارة الأزهر ومشيخة الطرق الصوفية، يالها من إهانة متعمدة

توجه لعمّار هذه المؤسسات الإسلامية، يا لها من إهانة توجه إلى شهر القرآن".

وكان أحد المسؤولين حاضراً لذلك الحفل فأبلغ الخبر إلى حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية فأصدر أمره بالغاء الحفل، فكم نحن -اليوم- بحاجة إلى أمثال هؤلاء العلماء.

ـــ ومن مواقفه المشرفة رده على الأديب أحمد حسن الزيات عندما كتب مقالاً افتتاحياً في مجلة الأزهر الذي كان يرأس تحريرها، وكان في المقال كُفر واضح ظاهر ألا وهو تفضيل الوحدة الناصرية على الوحدة المحمدية!! وثار الصالحون في العالم الإسلامي ومنهم الأستاذ أبو الحسن الندوي، وثار الشيخ محمود فايد وكتب مقالاً شديداً رد فيه على الزياد، نسأل الله العافية من الضلال.

ـــ الجانب الذي تميز به الشيخ رحمه الله تعالى:

تميز الشيخ محمود فايد بميزة لم تكن لعالم في زمانه فيما أعلم، والله أعلم ألا وهي اطلاعه الواسع على أحداث بلاده في زمانه، وفقهه واقعَ قومه، وقد جعله هذا يسارع إلى الرد على المخالف أو المفسد، أو الضال، وذلك من خلال المنبر الذي سخره الله له وهي مجلة "الاعتصام"، وهي على أنها محدودة الانتشار لكن كان لها من يتلقف مقالاتها المهمة فيعيد نشرها في بعض الصحف السيارة الذائعة، وبعض تلك المقالات نشر في صحف المعارضة بعد توقيف مجلة "الاعتصام".

ولم يستثن الشيخ في رده أحداً، فهو يرد على كل من يرى وجوب الرد عليه أو مناقشته، فقد ر على عبدالناصر في أوج طغيانه،

وعلى السادات، وعلى حسني مبارك، ورد على بعض الوزراء والكبراء، وعلى بعض المشايخ الضعاف أو أصحاب المواقف المنحرفة أو المتخاذلة.

ولقد جُمعت هذه الردود والمناقشات في كتاب ضخم اسمه صيحة الحق، وبعض هذه الردود والمناقشات آتت أكلها وثمارها فحصل بها تغيير ولله الحمد، إذن لم تكن كل تلك المقالات صرخة في وادٍ، ومن أهم ماجاء في الكتاب من ردود ومناقشات في ظني هو التالي، وأنصح القراء بقراءتها لأنها تعد مثل الوثائق التي تبين الأوضاع في أكبر بلد عربي وإسلامي رمته سهام الأعداء من كل جانب:

١. ردوده على الرئيس المصري أنور السادات في عدة مقالات، ومن أهم مارد عليه فيه مقولة السادات الشهيرة: "لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين".

٢. مقال يدعو فيه لعدم ترخيص الحزب الشيوعي.

٣. مقال فَنّد فيه معاهدة الصلح بين مصر ودولة الصهاينة، ورد على العلماء الذين أيدوها.

٤. عدة مقالات طالب فيها رؤساء مصر بتطبيق الشريعة الإسلامية وعدم التلكؤ في هذا الأمر العظيم، ورد على بعض أعمالهم المنافية للإسلام، وكان يسمي ثورة يوليو بالثورة المشؤومة، وقد شن حملة هائلة على عبدالناصر ووصف مخازيه وسيئاته على وجه مفصل.

٥. مجموعة مقالات يرد فيها على العلمانيين الذين ينادون بفصل الدين عن الدولة، ويهمزون الشريعة ويلمزونها كعادتهم، ومِن أبرز تلك المقالات ردوده على أمينة السعيد ومحمد أحمد خلف الله وأمثالهما من المنحرفين والضالين.

٦. مناقشاته لكبار العلماء فيما رأى أنهم قد أخطأوا فيه، فلم يترك أحداً منهم دون أن يرد عليه، فقد رد على عدد من شيوخ الأزهر، وكبار علماء عصره، ورد على المفتي محمد سيد طنطاوي فيما ذهب إليه من تحليل أنواع من الربا.

ومن أهم تلك الردود رده الرائع على شيخ الأزهر عبدالرحمن تاج، وقد ذكرت ذلك في ثنايا ترجمته، وأنصح كل عالم وشيخ وطالب علم بقراءة هذا المقال الجليل الذي كان له آثار ضخمة في مصر آنذاك.

ورد على د.محمد البهي الذي كان وزيراً للأزهر، ولم يمنعه ذلك الرد القوي من الثناء عليه وبيان محاسنه، وهذا من إنصافه.

ميزات مقالاته:

كان لمقالات الشيخ محمود فايد مزايا مهمة منها:

١. التوسع والإطناب في العَرْض بما يقتضيه المقام فيوفيه حقه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يريد إيراده إلا ويوردها.

٢. مزَج كلامه بالآيات الجليلة والأحاديث الشريفة وكلام الفقهاء الضابطين، وهذا مما يُكسب مقالاته الهيبة والقوة.

٣. والشجاعة الظاهرة الواضحة في الرد والنقاش، والقوة في تقرير ما يريده، وبمعنى آخر إن مقالاته تخلو مما يُسمى بـــ"المجاملة" التي جنت على كثير من الحقائق.

٤. المعاصرة لأحداث في البلاد ووقائع العباد، فمقالاته تعالج القضايا في وقتها وبالسرعة اللازمة للتأثير في نفوس قارئيها.

٥. الشمول في الردود فلا يترك حاكماً أو محكوماً يرى أن يرد عليه إلا ويبادر للرد فلا يخص بمقالاته طائفة أو طبقة من الناس، وهذا مما يضفي على مقالاته أهمية وجودة.

ــ وظائفه ومناصبه:

ــ عين وكيلاً عاماً للجمعية الشرعية.

ــ عُين رئيساً للجمعية الشرعية بمصر وذلك بعد وفاة الشيخ العالم عبداللطيف المشتهري، وظل في رئاستها منذ ١٤١٦/٣/١ – ١٩٩٥/٨/٢٨ إلى ١٤١٨/٢/٦ – ١٩٩٧/٦/١١، وذلك تاريخ وفاته رحمه الله تعالى.

وكان كل من يلي رئاسة الجمعية يلقب بإمام أهل السنة، وكان ذلك الوصف -في ظني- منطبقاً على الشيخ محمود فايد إلى درجة كبيرة من الانطباق، وذلك أن من أعظم خصائص أئمة السنة في كل زمان ومكان هو قول الحق وعدم خشية أحد فيه، وأحسب أن الشيخ كان من هؤلاء والله حسيبه ولا أزكي على الله أحداً.

ـــ وقد عُين أيضاً رائداً دينياً لمدينة البعوث في الأزهر، وكان مؤثراً على الطلبة الوافدين إلى الأزهر لكن الشيخ عُزل عنها، إذ لم يحتمل الطغاة له ذلك.

ـــ وعين أستاذاً في التفسير في كلية الدعوة وأصول الدين، وكلية اللغة العربية في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة النبوية.

عضو لجنة السنة بمجمع البحوث.

مؤلفاته:

للشيخ -رحمه الله تعالى- عدد من المصنفات منها:

كتاب "المنطق الواضح" في علم المنطق، في جزأين.

"التربية في كتاب الله".

"الإسلام والصحة".

"الإسلام وأثره في نهضة الشعوب".

"الرسالة المحمدية وشواهدها" ويعده أهم مؤلف له.

"صيحة الحق".

وحقق مجموعة من كتب التراث.

وللشيخ شعر منشور في بعض الكتب والمقالات، ولا بأس به.

وفاته:

توفي الشيخ رحمه الله تعالى سنة ١٤١٨/١٩٩٧ ودفن في مصر، رحمه الله تعالى وغفر لنا وله.

ملحظ:

أرسل لي الأخ علي حمدون أحمد رسالة على بريدي الإلكتروني يذكر فيها أن للشيخ مأثرتين جليلتين، أولهما أنه حقق كتاب "تهذيب الكمال في أسماء الرجال" للحافظ المزي، و لم يذكر أنه نُشر، والأخرى أنه أهدى مكتبته القيمة قُبيل وفاته إلى مكتبة كلية الدراسات الإسلامية والعربية في فرع جامعة الأزهر بدسوق، فجزاه الله خيراً.

فهرست الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة